القتل باسم الله

دراسة وإعداد

ياسر فرحات

مكتبة التراث الإسلامي

القتل باسم الله

دراسة وإعداد

ياسر فرحات

مكتبة التراث الإسلامي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ
أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا
قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢]

صدق الله العظيم

حين ظهر زعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن للمرة الأولي على العالم ليوزع فيه ألغام التكفير على العواصم العربية ، ويمنح لهذا صك الغفران أو يمنح لآخر لعنة السماء فقد أدرك المسلمون فى شتى بقاع الأرض أن خطرا كبيرا يحيط بهم من كل حدب وصوب ، فأعداء الإسلام يتربصون به عبر الأطلسي أو فى الأرض المغتصبة فى فلسطين المحتلة ، بينما يظهر من بيننا من يوفر لهؤلاء الأعداء فرصة مدهشة فى الالتفاف حول الأمة ومساعدة جيل التكفير الجديد فى حرق الأرض بأصحابها وزرع الفتن الداخلية لتشتعل نيرانا أبدية فى جسد المارد الإسلامى وتتكالب عليه قوى التطرف من المشرق والمغرب لتجهز عليه محاولة إطفاء نور اللّه بأفواهها .. لكن اللّه متم نوره ولو كره الكافرون .

وما نقف أمامه طويلا فى هذا المشهد العاصف فى تاريخ البشر ليست تلك الحملة الأمريكية الغاشمة التى تلت انفجارات نيويورك وواشنطن فى سبتمبر ٢٠٠١ ، لكن الأكثر خطورة هو تقديم الإسلام بهذه الصورة التى يتم خلالها توزيع اتهامات التكفير والحكم على جماعات من المسلمين بالخروج عن هذه العقيدة الخالدة ، ومن ثم الوقوع فى فخ الاقتتال الداخلي والصراع بين أبناء الأمة ..

ولعل دروس التاريخ تعلمنا كيف تهاوت الأمة إلى هذا الصراع مرات متعددة ، وكيف كان سلاح التكفير يستخدم لأغراض سياسية إلى جانب الأحكام الشرعية وكيف كان البعض يوظف قراءته للدين فى تحقيق غايات لاتخدم هذا الدين أو أهله ولا تعود بالمصلحة على ديار الإسلام .

هذه الصراعات تخرج فى الحقيقة عن جوهر تعاليم الأديان ، فقد كانت الرحمة والمحبة والسلام هى روح شريعة اللّه فى الأرض ، وجوهر الرسالة التى أتت بها الأديان السماوية.. جاءت الأديان لتضمد جراح البشرية المعذبة وترفع الظلم عن المستضعفين فى الأرض ، وتقيم ميزان العدل ، وتعلم الناس كلمة اللّه التى لا يأتيها الباطل من بين يديها أو من خلفها ..

جاءت الأديان لتكون نورا فى قلوب العالمين ، وقاربا وشراعا للنجاة ، وحصنا من الخوف والفزع ، جاءت الأديان ، لا لتقسم العالم بين مؤمنين وكفار ، بل .. لتكون رسالة المؤمنين بأن يحملوا هذه الدعوة الإلهية إلى غير المؤمنين ، وأن يدعوا شركاءهم على هذه الأرض أن ينضموا إلى قافلة الناجين من عذاب اللّه يوم القيامة ، جاءت الأديان وبعثت الرسل رحمة للناس ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] .

ومنذ فجر الرسالات السماوية على الأرض كان لكل دين أتباعه المخلصون الذين يفهمون كلام اللّه ويحسنون تطبيقه ، وإلى جانب هؤلاءكان هناك أيضا زمرة من المنتفعين.. بعضهم يحرفون الكلم عن مواضعه وبعضهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، وبعضهم يسخرون الآيات والقواعد وتعاليم السماء لتحقيق مصلحة خاصة أوغرض سياسى أو ليأتى على لذة ومتعة من متع الدنيا دون أن يعرف عن الدين إلا اسمه أو عن كتاب اللّه إلا رسمه .. أما قلبه فهو غارق فى البدع غير مبصر للحقيقة الخالصة وطعم الدين النقى .

كانت تلك الظواهر ومازالت قرينة كل رسالة دينية عرفها العالم .. وكان الذين يمتطون صهوة الدين ينفون الإيمان عن خصومهم السياسيين .. ويدعون أنهم وحدهم يملكون الحقيقة المطلقة .. وقد ارتبطت تلك الظواهر بصورة عضوية مع ظاهرة أخرى سادت على مدار التاريخ الإسلامى ومازالت بلدان العالم الإسلامى

تعاني منها حتى اليوم وهى **ظاهرة « التكفير »** وإخراج الناس رسميا من حظيرة الإيمان بإساءة تفسير بعض آيات اللّه أوبتعمد تحريف الكلم عن مواضعه لمتاع زائل أو غرض قريب يبرأ منه الشرع والدين .

وإذا كان من الطبيعى أن يشهد التاريخ أفواجا من المؤمنين وأفواجا من المكذبين ، ملايين من أتباع النبى وملايين من أعدائه ، كان من غير الطبيعى ومن غير المعقول أن يشهد هذا التاريخ انفجار ظاهرة التكفير والاتهام بالزندقة والابتداع والخروج عن تعاليم اللّه بين أتباع الدين الواحد .. فهذه الاتهامات سيوف ترفعها التيارات السياسية فى وجه بعضها البعض .. وخنجرا غُرس بإحكام فى جسد وحدة الأمة الإسلامية التى صار التكفير والإتهام بالزندقة سلاحا يفتت الأمة ويكسر عظامها إلى أنصاف غير متساوية ولا تقوى على أن تصير بنيانا مرصوصا مرة أخري .

ويشهد التاريخ الإسلامى علاقة خاصة وشديدة الحساسية بين سلاح التكفير وبين السلطة السياسية فى كل عصر من العصور ، فعبر الأزمنة المختلفة كان بعض الذين جلسوا على كراسي السلطة يستغلون الدين للحفاظ على شرعيتهم السياسية والقضاء على خصومهم باسم هذا الحق المقدس الذى منحوه لأنفسهم من طرف واحد ، وفى المقابل فإن معارضيهم لجأوا إلى الحيل نفسها وبدلا من البحث عن شرعية بتحقيق مصالح الناس كان البحث عن شرعية سماوية - تبرأ منها السماء - فالبعض قد استغلوا الدين أيضا وقاموا بتأويل الآيات والأحاديث لتحقيق أغراض سياسية محددة ما أنزل اللّه بها من سلطان فأعلن **« باسم الدين »** الحرب بين الأشقاء وشركاء طريق الإيمان وصار السيف بديلا عن مقارعة الحجة بالحجة ، وصار نفى الآخر باسم الكفر والزندقة بديلا عن الحوار .

الحوار .. هذا الفعل السامى الذى جاءت الرسل تدعو إليه فانظر مثلا إلى حوار إبراهيم عليه السلام وأبيه آزر ، وحوار هود عليه السلام مع قومه ، وصالح عليه

السلام مع عشيرته ، والنبى موسى عليه السلام مع الفرعون وحاشيته ، والنبى عيسى المسيح ابن مريم عليه السلام مع بني إسرائيل ، والرسول الخاتم محمد صلى اللَّه عليه وسلم مع قريش .

بل انظر إلى هذا الحوار الخالد بين اللَّه تبارك وتعالى وتقدست أسماؤه ، وواحد من أكبر عصاة خلقه وهو « إبليس » الذى رفض أن يمتثل إلى أمر اللَّه وخاض مع الرب العظيم الجبار حوارا صار قرآنا يتلي إلى يوم القيامة (١) .

انظر إلى حوار إبراهيم مع اللَّه وهو يبحث عن الطمأنينة فى إيمانه ويناشد اللَّه أن يريه كيف يحيى الموتى (٢) .

وانظر إلى حوار اللَّه مع النبى موسى وبنى إسرائيل خلال رحلة الخروج من مصر وما بعدها وكيف طالب نبى اللَّه موسى بأن يرى اللَّه رأى العين ثم خر صعقا حين تجلى الجبار العظيم على الجبل (٣) . حتى أن اللَّه تعالى كان يحاور العصاة من خلقه والباحثين عن حقيقة وجوده وقدرته .

---

(١) وذلك قول اللَّه تعالى : ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣ ﴾ [ص] .

(٢) وذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [البقرة : ٢٦٠] .

(٣) وذلك قول الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

لكن التاريخ يثبت على العكس من ذلك أن الكثير من الطوائف والمذاهب سعت إلى استغلال الدين كسلاح سياسي وأخرجت الشريعة عن مسارها واستغلتها فى تصفية الخصوم والأعداء ورفضت فكرة الحوار فيما تعتقد وتري ، وزعمت امتلاك الحقيقة المطلقة دون منازع ، وبعض هؤلاء لم يكن الدين ولا رضا اللّه هوغايته الأولى والأخيرة لكن مصلحة سياسية أو متاع من الدنيا كان همه وهدفه وقبلته ، لقد حدث ذلك مع كل أتباع الأديان السماوية على مر التاريخ ، فالذى كان لا يطيع الكهنة فى المعبد والفراعنة والسلاطين على عروش السلطة هو كافر زنديق لا حوار معه ولا خلاق له ، وطالما هو فى النار فى الآخرة ليكن أيضا فى النار والعذاب والنفى والسجن والتشريد فى الدنيا على أيدى كهنة الحقيقة المطلقة !

استخدم التكفير والنفى خارج حظيرة الدين سلاحا فى أيدى الكثير من السلاطين والتيارات السياسية تعبيرا عن القسوة والعداء ورمزا للغضب السياسي والتمرد فى أحيان أخرى ، واستخدمت شريعة اللّه التى تدعو للرحمة والعدل والحوار والمجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة فى فرض سلطة القساة على الأرض ، وصار كل طرف يستخدم شريعة اللّه فى غير ما قدر لها أن تكون .. وبدلا من أن تكون بردا وسلاما على العالمين صارت على أيدي بعض التيارات السياسية شبحا يهدد الجميع وسيفا مصلتا على الرقاب بغير وجه حق .

ورغم أن الكفر نقيض الإيمان وفى كل أمة من الأمم كان المؤمنون وكان الكفار إلا أن مصيبة الأمة أن يظهر بين أبنائها من يكفر الآخر منها ، ويدعو بين تياراتها بالتكفير والقتال ، وقد كانت مصيبة التكفير واحدة من المصائب التى حلت بالتاريخ الإسلامى وهى التى استخدمت فى كثير من الأزمنة والعصور لنفى الآخر وارتدت الكثير من الخلافات السياسية والأطماع الخاصة فى السلطة أقنعة دينية .

فصار البعض يستخدم الدين لتكفير الآخرين حتى يحصل على شرعيته أمام

الجماهير ويطعن فى شرعية الآخرين ، كما توسع بعض الفقهاء والوجهاء والقضاة فى التاريخ الإسلامى فى الحكم بالتكفير على علماء آخرين حتى يضمنوا إبعادهم عن حلبة المنافسة العلمية والجماهيرية كما تشهد بذلك كثير من الوقائع والأحداث التى تعرض لها أشهر علماء الإسلام ونخبة من عقول هذه الأمة منذ فجر التاريخ .

وظل التكفير سلاحا قاسيا يرفع لدى الضرورة السياسية فى كل جولة من جولات التاريخ حتى عصرنا الحالي الذى توسعت فيه بعض التيارات فى استخدام سلاح التكفير بصورة واسعة وصارت تصدر هذا الاتهام العنيف للحكام ورموز السلطة فى البلدان الإسلامية ، وتسوق على ذلك أدلة من القرآن والسنة وشريعة اللّه وهى تبتغى من وراء ذلك الوصول إلى كرسى السلطة تحت شعار « تطبيق حكم الشريعة الإسلامية » .

قصة الكفر والتكفير فى التاريخ الإسلامى مليئة بالتفاصيل والأسرار المثيرة فكم من عقول مزدهرة فى تاريخ الإسلام حكم عليها بالكفر ، وطردت من رحمة السلاطين ، وكم من أدباء وشعراء وأطباء وفلاسفة يفاخر بهم المسلمون العالم حتى اليوم صاروا كفارا فى عيون أبناء عصرهم دون أن يدافع عنهم أحد أو يستمع إليهم أحد أو يحاورهم أحد .

وهذا الكتاب .. يحاول جاهدا أن يلقى الضوء على هذا الجانب البارز فى تاريخ الإسلام ويكشف بجلاء أغرب قصص الكفر والتكفير التى تعرض لها رموز الأمة ، ويحمل من رحم التاريخ خطورة هذا المنهج التكفيرى على مستقبل الأمة الإسلامية ، ويبحر من رحم التاريخ إلى تفاصيل الواقع الذى نعيش فيه على بوابة الألفية الثالثة ليجد منهج التكفير باسم الدين شعارا لكثير من التيارات السياسية التى تعمل فى بعض البلدان العربية ، ويكشف الكتاب بعضا من جوانب هذه الأفكار الخطرة وجذورها منذ النشأة الأولى ، ويحاول الكتاب أن يقدم صورة

لمشهد العلاقة بين التكفير والسياسة عبر التاريخ الإسلامى وكيف استخدم هذا السلاح فى السياسة وتصفية الخصوم ، وكيف استخدم فى عقاب الخارجين عن سلطان الحكام ، وكيف كان التكفير سلاح كفار قريش أنفسهم ضد النبى صلى اللّه عليه وسلم وقومه حين اتهموه أنه صبأ عن دين قومه فحاصروا بنى هاشم فى شعاب مكة لا يبيعون لهم ولا يشترون منهم ، وكيف تطور هذا السلاح وحرفه البعض عن مساره الطبيعى ، وكيف كان التكفير سلاح كثير من السلاطين لضرب معارضيهم ، ثم كان سلاح كثير من المعارضين لضرب شرعية السلاطين ، ثم كان سلاحا مشتركا يستخدمه الجميع ضد الجميع فى زمن الفرق الإسلامية والمتكلمة فى عصور الخلافة المتعاقبة ثم صار هذا النوع من التكفير – وللأسف الشديد – عنوان حركة الإحياء الإسلامى الجديدة منذ مطلع الثمانينات وحتى اليوم ، وبدلا من أن تقدم لنا التيارات الإسلامية فى العصر الحديث نموذجا من كنوز الرحمة والدعوة للحوار فى الشريعة الإسلامية صار التكفير هو قائد المسيرة والحكم فى كل الخطوات ،وبعد أن كانت صورة الإسلام هو دين العدل والأخلاق والتسامح صار المكفرون الجدد يقدمونه على أنه دين الإرهاب والتكفير وقتل المسلم لأخيه المسلم .

وفى كل عهد بعد رحيل النبى صلى اللّه عليه وسلم سنلحظ أن مهمة أخرى لهذا المصطلح قد أعدت بعناية لاستخدامها فى المجال السياسي وأنه فى كثير من الأحوال التى استخدم فيها هذا العقاب لم يكن اللّه من وراء القصد لكن حاجة أخري لأصحاب الهوي والمتصارعين على السلطة .

ويقدم الكتاب أيضا قصص أشهر الشخصيات فى التاريخ الإسلامى التى تعرضت لهذه التهمة ومن راح ضحيتها بالسجن أو الاغتيال والنفى خارج الأوطان ويحاول الكتاب أيضا أن يجتهد فى وضع الخطوط الفاصلة بين الإيمان والكفر من خلال آراء العلماء وأن يناقش بعض آراء وفتاوي التكفير المعاصرة ،

والتى راح ضحيتها زعماء كبار فى الأمة الإسلامية ومازالت تلك الأفكار سابحة بيننا حتى الآن تطير فى أوساط الجامعات والشباب والتيارات السياسية وتأتى على الأخضر واليابس فى ثقافتنا الإسلامية العادلة وتلطخ بآثامها دين الرحمة والحرية والسلام والعدل .

إنها محاولة مخلصة لنقد الذات من الداخل وتهذيب منهج التفكير الإسلامى وتنقية تاريخ الحضارة الإسلامية من الأفكار التى لا تتفق مع روح شريعة اللَّه الغراء ، إنها محاولة مخلصة متواضعة لأن يكون الحوار هو المنهج وهو الوسيلة ، وأن يكون اللَّه دوما من وراء القصد لا الدنيا ومنافعها أو السلطة ومتعها .

وحين نقتحم بالكتابة تلك القضية الخطيرة فى التاريخ السياسى الإسلامى فإننا فى الوقت نفسه نعتقد يقينا وإيمانا أن أعظم الأمور التى بعث بها النبى محمد صلى اللَّه عليه وسلم بعد توحيد اللَّه سبحانه وتعالى هو التفريق بين أهل التوحيد وأهل الشرك ، وبين أهل الإيمان وأهل الكفر لأنه على أساس هذا التفريق تنبني كثير من الفروع العلمية والعقائد الإيمانية والأحكام الفقهية التى نص عليها الشرع الحنيف وأوصى بها اللَّه سبحانه فى كتابه العزيز ، فلأهل الكفر من الأحكام ما يناسب حالهم كوجوب قتالهم أو استحباب مسالمتهم أو تأليف قلوبهم أو اتقاء شرورهم أو البر بهم والإحسان إليهم وفق ما يحكم به العلماء الثقاة من المسلمين المشهود لهم بالعلم والنزاهة والتجرد من أغراض الدنيا وحسب النصوص الوجوبية التى أتي بها شرع اللَّه .

ويقينى أن الضلال قد يأتى من باب آخر وهو أن يحكم للكافر بالإسلام ويعطى أحكام أهل الإسلام من الموالاة والنصرة والاطلاع على عورات المسلمين وكشف أسرارهم وهذا ما لا يمكن القبول به لتحقيق صحة العقيدة الإسلامية ، ولذلك فإن غرض هذا الكتاب لا يمكن أن يقترب بالنقد من هذا الحد الفاصل الذى يقره الإسلام بين الإيمان والكفر ، ولا يقبل أن يراجع ما أمرت به تعاليم الإسلام من

تحديد من هو المسلم حقا ومن هو الكافر حقا ، لكنه يقتحم أسوار الفتنة بين المسلم والكافر ويكشف ما تختلط فيه الأمور بهذا الشأن ، ويحقق فى الاستغلال السياسى لفكرة التكفير عبر التاريخ الإسلامى ، وهو فى هذا السبيل لا يصدر أحكاما بالإدانة أو البراءة على أحد بقدر ما يعمل على الكشف والتمييز بين حدود الإيمان الخالص وفوضى الفتنة القاسية وبين إصدار هذا الحكم لأنه يتفق مع إرادة اللّه وتعاليمه وبين استخدامه دفاعا عن سلطة قائمة أو العمل من أجل القفز على سلطة مرتقبة ..

واللّه من وراء القصد وهو يهدي السبيل .

ياسر فرحات

القاهرة في ٢٠٠٣/٦/١٠م

○ ○ ○

الفصل الأول

متى بدأ البركان

فى صفين كان الانفجار الغاضب الذى لا يزال العالم الإسلامى يحصد بعض ثماره شديدة المرارة حتى اليوم . ومن هنا بدأ البركان ، ومن هنا بدأت المعركة الكبري مع التكفير فى تاريخ الإسلام .

تجلت حكمة اللَّه تعالى فى اختيار نبى رقيق القلب رحيم الوجدان يشهد الناس برحمته وصدقه وأمانته حتى من قبل أن يتلقى التكليف الرسمى بالرسالة السماوية ، واللَّه يؤكد فى كتابه الكريم على حيوية هذه الأخلاق الكريمة التى تمتع بها النبى محمد صلى اللَّه عليه وسلم ويشير إلى الأثر الكبير الذى حققته تلك الأخلاق لدعوة الإسلام على الأرض ، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

بهذه الآية الربانية ربما ندرك أن رسالة الإسلام كان يمكن ألا تشهد هذا الإقبال الواسع فى عصر النبوة لو كان النبى على عكس تلك الحقيقة التى سجلها له اللَّه فى القرآن الكريم ، فالرحمة والحوار ورهافة الحس كانت هى المفاتيح التى فتح بها النبى محمد صلى اللَّه عليه وسلم الأبواب المغلقة وأزال بها ما ران على قلوب كفار قريش من قسوة قلب وسوء اعتقاد وابتعاد عن دين اللَّه الحق ، ولو كان النبى فظا غليظ القلب لانفض الناس من حوله كما يؤكد اللَّه تعالي على هذه الحقيقة البارزة فى مسيرة الدعوة الإسلامية .

وخلال زمن الرعيل الأول للإسلام كان الصحابة يتجنبون الخوض فى القضايا الخلافية وما كان النبى يأتيهم به يأخذونه كما هو من نبعه الأول عازفين عن الخلاف معلين كلمة النبى صلى اللَّه عليه وسلم على ما دونها من كلمات ، وفى

هذا الزمن تجلت صور النقاء الإيمانى الذى قلب موازين الجزيرة العربية وأعاد رسم خريطة العالم وبشر بعصر جديد من التوحيد الخالص والشريعة العادلة .

وقد كان طبيعيا فى فجر الدعوة أن يميز الرسول صلى اللّه عليه وسلم بين الإيمان الخالص والكفر الخالص وفق ما تقتضيه قواعد الرسالة الجديدة ، وتمييزا للإسلام على ما دونه من الأديان السماوية وغير السماوية الأخرى التى عرفها العرب وشهدها تاريخ شبه الجزيرة العربية أو غيره من الأراضي قبل رسالة الإسلام الأخيرة فى سلسلة الديانات السماوية ، ومن هنا كان الإسلام حريصا على أن يضع الخطوط الفاصلة بين المسلم والكافر ، ويميز حزب اللّه عن حزب الشيطان ، وجماعة المسلمين عن جماعة الكفار بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وسلوك النبى والسلوك الجماعى للمسلمين .

هذا الحرص على التمييز بين المسلمين والكفار كان ضروريا وحيويا فى فجر الرسالة إذ كان هذا التفرد الإيماني حول أفكار الرسالة الجديدة عاملا من عوامل توحيد جسد المسلمين الجدد فى كيان واحد ، وتعزيزا لهذا الكيان المستحدث فى مواجهة الكيانات الأخري كالديانات الموروثة أو العقائد المختلفة ، وكان لتدعيم هذا الكيان الجديد فى مواجهة نعرات القبلية التى كانت سائدة قبل الإسلام وتحداها الدين الجديد وقام بصهر الجميع فى بوتقة واحدة .

كان التمييز ضروريا ، وكان حرص الرسالة الجديدة على أن تضع الخطوط الفاصلة بين أتباعها والآخرين وجوبيا فى مواجهة أمواج الديانات والأفكار التى سادت شبه الجزيرة العربية فى هذا الزمن من تاريخ العالم .

كانت الجزيرة العربية غارقة فى أمواج متلاطمة من الديانات المختلفة والأفكار

المتناقضة من روح الرسالة السماوية الجديدة التى تلقاها النبى محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فإلى جانب الديانتين السماويتين اللتين سمح الإسلام بالتعايش معهما وهما اليهودية والمسيحية كانت توجد اتجاهات عقائدية أخرى شاذة بخلاف التيار الوثنى السائد بين العرب وربما كان يجب تمييز الجماعة المؤمنة الجديدة عنها ، ورسم خطوط واضحة لأتباع رسالة النبى محمد يحول بينهم وبين السقوط فى براثن الأفكار الأخرى التى سادت قبل ظهور الإسلام وبعده ، كما وجب أيضا بيان أنه لا يكفى أن تكون حسن النية حين تعتقد فى ديانة معينة لكن اتباع النبى الجديد كان فريضة لا يقبل اللّه أحدا بدونها لأنها رسالته الخاتمة إلى العالمين .

سادت موجة من الأفكار الغريبة منطقة مهبط الرسالة فى هذا العصر وأوجبت هذه الفوضى التمييز الواضح فى العقيدة الإسلامية بين الإيمان بالدين الحقيقى وبين غيره من العقائد وبين وضع خطوط فاصلة لا تقبل الشك بين المسلم والكافر ، ومن بين هذه الأفكار الغريبة التى هيمنت على هذا العصر وفرضت هذا التحدى على عقيدة الإسلام كانت :

الغنوصية « العرفانية »

وكان هذا المبدأ قديما وسابقا على ظهور الإسلام وقد تأثرت به المسيحية والمدارس الفلسفية المختلفة وذكر لنا مؤرخو حياة الفيلسوف أفلاطون .. أن بعض العرفانيين كانوا يثيرون الجدل فى محاضراته ويعاندون توجهات هذا الفيلسوف الكبير الأمر الذى يعني أنهم كان لهم دور بارز قبل ظهور الإسلام .

ومبدأ الغنوصية أو العرفان على رأيهم ليس العلم بواسطة المعانى المجردة والاستدلال كما هو الحال فى المعرفة الفلسفية المنطقية بل هو عندهم المعرفة الحدسية الحاصلة من اتحاد المعارف بموضوع المعرفة ، أما غاية هذه المعرفة فهى الوصول إلى عرفان اللّه بكل ما فى النفس من قوة وحدس وعاطفة وخيال وتزعم العرفانية أنها المثل الأعلى للمعرفة وترجع بأصلها إلى وحى أنزله اللّه منذ البدء وتناقله المريدون سرا وهذا التيار لا يميل إلى اتباع ما أنزله اللّه على الأنبياء منذ فجر النبوة ويفضلون الاعتماد على حدسهم فى إدراك اللّه والتعبد له على طريقتهم الخاصة !

○ ○ ○

الزرادشتية

ومن الأفكار الغريبة أيضا التى كان لها تأثير كبير على تاريخ العالم فى هذه الفترة ما أطلت به الثقافة الفارسية على الإسلام حيث عرف عن الفرس قبل الدولة الساسانية أنهم كانوا يدينون بثنائية كونية أخلاقية تنطوى على مبدأين هما النور والظلام أو مجموعة الأرواح الخيرة ومجموعة الأرواح الشريرة وهذان المبدآن فى صراع دائم ، وتتحقق الغلبة فى النهاية لإله الخير ، وقد جاء زرادشت واستغل هذه الفكرة القديمة وبلورها فى ديانة خاصة سميت باسمه ، واحتلت مكانة مهمة خلال هذا العصر [1] .

(١) جاء في اعتقادات فرق المسلمين ، الزرادشتية : أتباع زرادشت وهو رجل من أهل اذربيجان ظهر في أيام بشتاسف بن لهراسف وادعى النبوة فآمن به بشتاسف وأظهر اسبديار بن بشتاسف دين زرادشت في العالم وبين المجوس خلاف كثير إلا أن الكل يتفقون على أن الله تعالى حارب مع الشيطان ألوف سنين ولما طال الأمر توسطت الملائكة بينه وبين الشيطان على أن الله تعالى يسلم العالم الى الشيطان سبعة آلاف سنة يحكم ويفعل ما يريد وبعد ذلك عهد أن يقتل الشيطان ثم أخذت الملائكة سيفهما منهما وقرروا بينهما أنه من خالف منهما ذلك العهد قتل بسيفه وكان هذا الكلام غير لائق بالعقلاء لكن المجوس متفقون على ذلك .

وفي تلبيس إبليس : قال الجاحظ وجاء زرادشت من بلخ وهو صاحب المجوس فادعى أن الوحي ينزل إليه على جبل سيلان فدعى أهل تلك النواحي الباردة الذين لا يعرفون إلا البرد وجعل الوعيد بتضاعف البرد وأقر بأنه لم يبعث إلا إلى الجبال فقط وشرع لأصحابه التوضؤ بالأبوال وغشيان الأمهات وتعظيم النيران مع أمور سمجة قال ومن قول زرادشت كان الله وحده فلما طالت وحدته فكر فتولد من فكرته إبليس فلما مثل بين يديه وأراد قتله امتنع منه فلما رأى امتناعه ودعه إلى مدة .

ويري زرادشت أن للعالم قوانين ثابتة وطبيعية يسير عليها وأن هناك تصادما ونزاعا مستمرا بين الخير والشر أو بين النور والظلمة ومجهوده فى هذا الاتجاه هو توحيد الأرواح الخيرة وقد سماها « أرمزد » والأرواح الشريرة وقد سماها « أهريمان » ورتب زرادشت لإله الخير القدرة على الخلق .

وقد كان للديانة الزرادشتية تأثير كبير على كثير من العرب قبل الإسلام وبعده فى بعض البلدان الأخرى المجاورة حتى أن دولة إسلامية كبرى مثل إيران لاتزال حتى اليوم تسمح بالديانة الزرادشتية كدين معترف به على أراضيها .

○ ○ ○

المانوية

ولد مانى فى أوائل القرن الثالث الميلادى وهو فارسى أيضا وكانت تعاليمه مزيجا من الأفكار الزرادشتية وتعاليم الديانة المسيحية .

وقد تابع رأى زرادشت فيما يختص بالثنائية الفارسية وتكلم عن امتزاج النور بالظلمة ولكنه يختلف عن زرادشت فى أنه يرى أن هذا العالم شر لامتزاج الخير والشر فيه ويجب الخلاص من هذا الامتزاج ويكون ذلك بالامتناع عن النسل حتى ينقرض الجنس البشرى ومن ثم فقده [1] .

(١) جاء في كتاب الفهرست : قال محمد بن إسحاق ماني بن فتق بابك بن أبي برزام من الحسكانية واسم أمه ميس ويقال أوتاخيم ويقال مرمريم من ولد الاشغانية وقيل إن مانى كان أسقف قنى والعربان من أهل حوحى وما يلي بادرايا وباكسايا وكان أحنف الرجل وقيل إن أصل أبيه من همدان انتقل الى بابل وكان ينزل المداين في الموضع الذي يسمى طيسفون وبها بيت الأصنام وكان فتق يحضر كما يحضر سائر الناس فلما كان في يوم من الأيام هتف به من هيكل بيت الأصنام هاتف يا فتق لا تأكل لحما ولا تشرب خمرا ولا تنكح بشرا تكرر ذلك عليه دفعات في ثلاثة أيام فلما رأى فتق ذلك لحق بقوم كانوا بنواحي دستميسان يعرفون بالمغتسلة وبتيك النواحي والبطائح بقاياهم الى وقتنا هذا وكانوا على المذهب الذي أمر فتق بالدخول فيه وكانت امرأته حاملا بمانى فلما ولدته زعموا كانت ترى له المنامات الحسنة وكانت ترى في اليقظة كأن آخذا يأخذه فيصعد به الى الجو ثم يرده وربما أقام اليوم واليومين ثم يرد ثم إن أباه أنفذ فحمله الى الموضع الذي كان فيه فربي معه وعلى ملته وكان يتكلم مانى على صغر سنه بكلام الحكمة فلما تم له اثنتا عشرة سنة أتاه الوحي على قوله من ملك جنان النور وهو الله تعالى عما يقوله وكان الملك الذي جاءه بالوحي يسمى التوم وهو بالنبطية ومعناه القرين فقال له اعتزل هذه الملة فلست من أهلها وعليك بالنزاهة وترك الشهوات ولم يأن لك أن تظهر لحداثة سنك فلما تم له أربع وعشرون سنة أتاه التوم فقال قد حان لك أن تخرج فتنادي بأمرك . =

= الكلام الذي قاله له التوم : عليك السلام مانى مني ومن الرب الذي أرسلني إليك واختارك لرسالته وقد أمرك أن تدعو بحقك وتبشر ببشرى الحق من قبله وتحتمل في ذلك كل جهدك قالت المانوية فخرج يوم ملك سابور بن اردشير ووضع التاج على رأسه وهو يوم الأحد أول يوم من نيسان والشمس في الحمل ومعه رجلان قد تبعاه على مذهبه أحدهما يقال له شمعون والآخر زكوا ومعه أبوه ينظر ما يكون من أمره قال محمد بن إسحاق ظهر مانى في السنة الثانية من ملك الغالوس الرومي وظهر مرقيون قبله بنحو مائة سنة في ملك ططوس انطونيانوس في السنة الأولى من ملكه وظهر بن ديصان بعد مرقيون بنحو ثلاثين سنة وانما سمي بن ديصان لأنه ولد على نهر يقال له ديصان وزعم مانى أنه الفارقليط المبشر به عيسى عليه السلام واستخرج مانى مذهبه من المجوسية والنصرانية وكذلك القلم الذي يكتب به كتب الديانات مستخرج من السرياني والفارسي وجول مانى البلاد قبل أن يلقى سابور نحو أربعين سنة ثم انه دعا فيروز أخا سابور بن اردشير فأوصله فيروز الى أخيه سابور قالت المنانية فدخل اليه وعلى كتفيه مثل السراجين من نور فلما رآه أعظمه وكبر في عينه وكان قد عزم على الفتك به وقتله فلما لقيه داخلته له هيبة وسر به وسأله عما جاء فيه فوعده أنه يعود اليه وسأله مانى عدة حوائج منها أن يعز أصحابه في البلد وسائر بلاد مملكته وأن ينفذوا حيث شاءوا من البلاد فأجابه سابور الى جميع ما سأل وكان مانى دعا الهند والصين وأهل خراسان وخلف في كل ناحية صاحبا له ، ذكر ما جاء به مانى وقوله في وصفة القديم تبارك وتعالى وبناء العالم والحروب التي كانت بين النور والظلمة قال مانى مبدأ العالم كونين أحدهما نور والآخر ظلمة كل واحد منهما منفصل من الآخر فالنور هو العظيم الأول ليس بالعدد وهو الإله ملك جنان النور وله خمسة أعضاء الحلم والعلم والعقل والغيب والفطنة وخمسة أخر روحانية وهي الحب والايمان والوفاء والمروءة والحكمة وزعم أنه بصفاته هذه أزلي ومعه شيئان اثنان أزليان أحدهما الجو والآخر الأرض قال مانى وأعضاء الجو خمسة الحلم والعلم والعقل والغيب والفطنة وأعضاء الأرض النسيم والريح والنور والماء والنار والكون الآخر وهو الظلمة وأعضاؤها خمسة الضباب والحريق والسموم والسم والظلمة قال مانى وذلك الكون النير مجاور للكون المظلم لا حاجز بينهما والنور يلقي الظلمة بصفحته ولا نهاية للنور من علوه ولا يمنته ولا يسرته ولا نهاية للظلمة في السفل ولا في اليمنة واليسرة قال مانى ومن =

= تلك الأرض المظلمة كان الشيطان لا أن يكون أزليا بعينه ولكن جواهره كانت في عناصره أزلية فاجتمعت تلك الجواهر من عناصره فتكونت شيطانا رأسه كرأس أسد وبدنه كبدن تنين وجناحه كجناح طاير وذنبه كذنب حوت وأرجله أربع كأرجل الدواب فلما تكون هذا الشيطان من الظلمة وتسمى إبليس القديم ازدرد واسترط وأفسد ومر يمنة ويسرة ونزل الى السفل في كل ذلك يفسد ويهلك من غالبه ثم رام العلو فرأى لمحات النور فأنكرها ثم رآها متعالية فارتعد وتداخل بعضه في بعض ولحق بعناصره ثم انه رام العلو فعلمت الأرض النيرة بأمر الشيطان وما هم به من القتال والفساد فلما علمت به علم به عالم الفطنة ثم عالم العلم ثم عالم الغيب ثم عالم العقل ثم عالم الحلم قال ثم علم به ملك جنان النور فاحتال لقهره قال وكان جنوده أولئك يقدرون على قهره ولكنه أراد أن يتولى ذلك بنفسه فاولد بروح يمنته وبخمسة عالميه وبعناصره الاثني عشر مولودا وهو الإنسان القديم وندبه لقتال الظلمة قال فتدرع الإنسان القديم بالأجناس الخمسة وهي الآلهة الخمسة النسيم والريح والنور والماء والنار واتخذهم سلاحا فأول ما لبس النسيم وارتدى على النسيم العظيم بالنور المسبغ وتعطف على النور بالماء ذي الهباء واكتن بالريح الهابة ثم أخذ النار بيده كالمجن والسنان وانحط بسرعة من الجنان الى أن انتهى الى الحد مما بلى الحربي وعمد إبليس القديم الى أجناسه الخمسة وهي الدخان والحريق والظلمة والسموم والضباب فتدرعها وجعلها جنة له ولقي الإنسان القديم فاقتتلوا مدة طويلة .

واستظهر إبليس القديم على الإنسان القديم واسترط من نوره وأحاط به مع أجناسه وعناصره وأتبعه ملك جنان النور بآلهة أخر واستنقذه واستظهر على الظلمة ويقال لهذا الذي أتبع به الإنسان حبيب الأنوار فنزل وخلص الإنسان القديم من الجهنمات مع ما أخذ وأسر من أرواح الظلمة قال ثم ان البهجة وروح الحياة ظعنا الى الحد فنظرا الى غور تلك الجهنم السفلى وأبصرا الإنسان القديم والملائكة وقد أحاط بهم إبليس والزجريون العتاة والحياة المظلمة قال فدعا روح الحياة الإنسان القديم بصوت عال كالبرق في سرعة فكان إلها آخر قال مانى فلما شابك إبليس القديم بالإنسان القديم بالمحاربة اختلط من أجزاء النور الخمسة بأجزاء الظلمة الخمسة فخالط الدخان النسيم ، فمنها هذا النسيم ممزوج فما فيه من اللذة والترويح عن الأنفس وحياة الحيوان فمن النسيم وما فيه من الهلاك والايذاء فمن الدخان ، وخالط الحريق النار فمنها هذه النار فما فيها من الاحراق والهلاك والفساد =

= فمن الحريق وما فيها من الاضاءة ، والانارة فمن النار وخالط النور الظلمة فمنها هذه الأجسام الكثيفة مثل الذهب والفضة وما شابه ذلك فما فيها من الصفاء والحسن والنظافة والمنفعة فمن النور وما فيها من الدرن والكدر والغلظ والقساوة فمن الظلمة وخالط السموم الريح فمنها هذه الريح فما فيها من المنفعة واللذة فمن الريح وما فيها من الكرب والتعوير والضرر فمن السموم وخالط الضباب الماء فمنها هذا الماء فما فيه من الصفاء والعذوبة الملائمة للأنفس فمن الماء وما فيه من التغريق والتخنيق والاهلاك والثقل والفساد فمن الضباب قال ماني فلما اختلط الأجناس الخمسة الظلمية بالأجناس الخمسة النورية نزل الإنسان القديم الى غور العمق فقطع أصول الأجناس الظلمية لئلا تزيد ثم انصرف صاعدا الى موضعه في الناحية الحربية قال ثم أمر بعض الملائكة باجتذاب ذلك المزاج الى جانب من أرض الظلمة يلي أرض النور فعلقوهم بالعلو ثم أقام ملكا آخر فدفع اليه تلك الأجزاء الممتزجة قال مانى وأمر ملك عالم النور بعض ملائكته بخلق هذا العالم وبنائه من تلك الأجزاء الممتزجة لتخلص تلك الأجزاء النورية من الأجزاء الظلمية فبنى عشر سماوات وثماني أرضين ووكل ملكا يحمل السماوات وآخر يرفع الأرضين وجعل لكل سماء أبوابا اثني عشر بدهاليزها عظاما واسعة كل واحد من الأبواب بإزاء صاحبه وقبالته على كل واحد من الدهاليز مصراعين وجعل في تلك الدهاليز في كل باب من أبوابها ست عتبات وفي كل واحدة من العتبات ثلاثين سكة وفي كل سكة اثني عشر صفا وجعل العتبات والسكك والصفوف من أعاليها في علو السماوات قال ووصل الجو بأسفل الأرضين على السماوات وجعل حول هذا العالم خندقا ليطرح فيه الظلام الذي يستصفى من النور وجعل خلف ذلك الخندق سورا لكي لا يذهب شيء من تلك الظلمة المفردة عن النور قال مانى ثم خلق الشمس والقمر لاستصفاء ما في العالم من النور فالشمس تستصفي النور الذي اختلط بشياطين الحر والقمر يستصفي النور الذي اختلط بشياطين البرد في عمود السبح يتصاعد ذلك مع ما يرتفع من التسابيح والتقاديس والكلام الطيب وأعمال البر قال فيدفع ذلك الى الشمس ثم إن الشمس تدفع ذلك الى نور فوقها في عالم التسبيح فيسير في ذلك العالم الى النور الأعلى الخالص فلا يزال ذلك من فعلها حتى يبقى من النور شيء منعقد لا تقدر الشمس والقمر على استصفائه فعند ذلك يرتفع الملك الذي كان لحمل الأرضين ويدع الملك الآخر اجتذاب السماوات فيختلط الأعلى على =

دعا إلى الزهد وحرم النكاح وحبذ الصوم ونهى عن ذبح الحيوان .

وقد أثار المانويون مشاكل متعددة تتعلق بالمعاد الجسمانى والروحانى وتناول المتكلمون آراءهم بالرد والتفنيد وأطلقوا عليهم لفظ « الزنادقة » وإن كان بعض المؤرخين يرون أن لفظ الزنادقة أطلق على أتباع مذهب خاص من المانوية وليس على المانوية جميعا .

○ ○ ○

= الاسفل وتفور نار فتضطرم في تلك الأشياء فلا تزال مضطرمة حتى يتحلل ما فيها من النور قال مانى ويكون ذلك الاضطرام مقدار ألف سنة وأربعمائة وثمان وستين سنة قال فإذا انقضى هذا التدبير ورأت الهمامة روح الظلمة خلاص النور وارتفاع الملائكة والجنود والحفظة استكانت ورأت القتال فيزجرها الجنود من حولها فترجع الى قبر قد أعد لها ثم يسد ذلك القبر بصخرة تكون مقدار الدنيا فيردمها فيه فيستريح النور حينئذ من الظلمة وأذاها وزعمت الماسية من المانوية أن النور يبقى منه شيء في الظلمة .

المزدكية

ظهر مزدك ، مؤسس الديانة المزدكية ، فى فارس عام ٤٨٧ ميلادية وهو من أهل نيسابور واعتنق الثنائية الفارسية أيضا وكان للعصر الذى ظهر فيه أثره الكبير فى تكوين تعاليمه فقد كانت فارس فى هذه الفترة يسودها الاضطراب وتعمها الفوضى وقد بنى مزدك تعاليمه على الأساس التالي :

فقد رأى أن الناس يتصارعون على خمسة أشياء هى : « الغيرة ، والغضب ، والثأر ، والفقر ، والشهوة » وهذه الأشياء هى مصدر الشرور فى العالم وإن أردنا – وفق رؤيته – تحقيق الخير علينا أن نقضى على كل ما يسبب تلك المسائل الخمس ولن يكون ذلك إلا بإقرار شيوعية المال والنساء .

واعتنق كثيرون هذا المبدأ الشاذ فى فارس وخارجها .

ويقال إن أبو ذر الغفاري حين خطب فى أهل الإسلام طالب بأن يسوي بين الفقراء والأغنياء فأرسله معاوية بن أبى سفيان إلى عثمان مخافة ثورة الأغنياء فى الشام وسأله عثمان عن رأيه فقال له « لا ينبغى للأغنياء أن يقتنوا مالا » ويفسر الطبري حقيقة آراء أبى ذر الغفاري فى هذا الموضوع فيقول إن ابن السوداء لقى أبا ذر فأوعز إليه بذلك وابن السوداء هذا حسب هذه الرؤية هو عبدالله بن سبأ اليهودى وقد كان يروج للمزدكية فى هذا الوقت [1] .

(١) ذكره محمد رضا في كتابه : عثمان ذو النورين :
جاء في كتاب الملل والنحل ، المزدكية : أصحاب مزدك ،ومزدك هو الذى ظهر في أيام قباذ والد انو شروان ودعا قباذ الى مذهبه فاجابه واطلع انو شروان على خزيه وافترائه فطلبه فوجده فقتله حكى الوراق أن قول المزدكية كقول كثير من المانوية فى الكونين والأصلين الا ان مزدك كان يقول إن النور يفعل بالقصد والاختيار والظلمة تفعل على =

وتقول كتب التاريخ إن المزدكية كان لها تأثيرها على ثورة الزنج فى البصرة عام ٢٦٤هـ وكذلك حركة القرامطة التى بدأت بين الكوفة والبصرة ثم استقرت ردحا من الزمن فى البحرين والاحساء الأمر الذى يؤكد نفوذ هذه الأفكار إلى جانب الوثنية والديانات السماوية التى جاء الإسلام مصححا لانحرافات بعض اتباعها ومكملا للدين الحنيف .

○ ○ ○

= الخبط والاتفاق والنور عالم حساس والظلام جاهل اعمى وان المزاج كان على الاتفاق والخبط لا بالقصد والاختيار وكذلك الخلاص انما يقع بالاتفاق دون الاختيار وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ولما كان اكثر ذلك انما يقع بسبب النساء والأموال أحل النساء وأباح الاموال وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ وحكى عنه أنه أمر بقتل الأنفس ليخلصها من الشر ومزاج الظلمة ومذهبه فى الاصول والأركان أنها ثلاثة الماء والارض والنار ولما اختلطت حدث عنها مدبر الخير ومدبر الشر فما كان من صفوها فهو مدبر الخير وما كان من كدرها فهو مدبر الشر وروى عنه ان معبوده قاعد على كرسيه فى العالم الاعلى على هيئة قعود خسرو فى العالم الأسفل وبين يديه أربع قوى قوة التمييز والفهم والحفظ والسرور كما بين يدى خسرو اربعة اشخاص موبذ موبذان والهربد الاكبر والاصبهيد والرامشكر وتلك الاربع يدبرون امر العالم بسبعة من ورائهم سالار وبيشكار وبالون وبراون وكازران ودستور وكوذك وهذه السبعة تدور فى اثنى عشر روحانيين خواننده ودهنده وستاننده وبرنده خورننده ودونده وخيزنده وكشنده وزننده وكنننده وابنده وشونده وباينده وكل انسان اجتمعت له هذه القوى الاربع والسبع والاثنا عشر صار ربانيا فى العالم السفلى وارتفع عنه التكليف قال وان خسروا العالم الاعلى انما يدبر بالحروف التى مجموعها الاسم الاعظم ومن تصور من تلك الحروف شيئا انفتح له السر الاكبر ومن حرم ذلك بقى فى عمى الجهل والنسيان والبلادة والغم فى مقابلة القوى الأربع الروحانية وهم فرق الكوذية وابو مسلمية والماهانية والاسبيدخامكية والكوذية بنواحى الاهواز وفارس وشهرزور والآخر بنواحى سغد سمرقند والشاش وايلاق .

الثقافة الهندية

اتصل العرب والمسلمون بالهند فى عصور مختلفة وقد كان لهذا الاتصال تأثير كبير على حضارة العرب قبل وبعد الإسلام .

وامتد تأثير الثقافة الهندية إلى الإسلام حتى العصر العباسى ، فاستقدم الخلفاء الأطباء الهنود لمعالجتهم واشتهر منهم مرتكة ، وصالح ، وبن بهنام الهندى ، وكوكلة . ونقلت كثير من كتب الهند فى الطب إلى العربية ، ونقل المسلمون علوم الفلك والتنجيم وعلم الحساب . أما الفلسفة فقد كان الهنود يربطونها بعقيدتهم الدينية والتناسخية ويعتقدون فى نظرية تطهير الروح من الجسد وينتحلون ضروبا من الزهد والتقشف .

وقد كان لهذه الأفكار الهندية تأثير كبير عند متصوفة الإسلام ويظهر أن المسلمين نقلوا عنهم عقيدة التناسخ ولكنها لم تنتشر بين الكثرة واختصت بها فئات محدودة واشتهر بين العرب أبو الريحان البيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ هجريًا وهو العالم بثقافات الهند وله كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة » وهو يعد مرجعا فى عادات الهند وأديانها وعلومها .

○ ○ ○

البرهمانية

وهناك من الأديان التى تسللت إلى بعض العرب مثل البرهمانية الذين يقدسون « الفيدا » وهو كتاب مقدس يقال إنه مجموعة من التعاليم والشعائر الدينية التى ألقيت شفويا ثم حررت فيما بعد فى أربعة كتب وهى « رج فيدا ، وساما فيدا ، وياجو فيدا ، وأتار فيدا » وفيه الكلام عن العقائد والتعاويذ والسحر .

والبرهمانية يعتقدون فى إله واحد مطلق هو براهما فلا يوجد شيء خارجه وهذا الإله هو الحقيقة الكلية التى تنطوى على سائر الموجودات . وأما العالم فهو تجل ظاهرى لهذه الحقيقة ، ولا تميز عن براهما إلا بطريق الوهم ، وغاية الفرد الوصول إلى الاتحاد باللّه ، وهنا تتعرض البرهمانية لمشكلة الخلاص .. أى : خلاص النفس من العالم الأرضى ويتم تحقيق الخلاص بأحكام السيطرة على النفس أو اكتساب قوى فوق الطبيعة للتسلط على الأشياء والأفراد عن طريق « اليوجا » .

○ ○ ○

البوذيـة (١)

وتقوم البوذية على أسس أخلاقية واضحة حيث تدعو الإنسان إلى أن يطرح الأنانية والشهوات وهى ترى أيضا ضرورة محو الذات الإنسانية النفس الفردية وتطلق عليها اسم « كارمان » وفناؤها فى الذات الإلهية التى تسميها « النرفانا » .

ووسيلة البوذية هى الإدراك وهو يتمثل فى إدراك الإنسان لجهله من حيث أن هناك مجموعة من الأسباب تؤدى إلى الجهل والجهل يؤدى إلى الشقاء فاستطاعة الإنسان أن يكشف عن جهله هى أول خطوة فى طريق الخلاص ، ويجب أن يكف الإنسان عن التعلق بالحياة حتى يتحقق له النجاة من وجهة نظر البوذية .

كل هذه الأمواج من الأفكار المنحرفة إلى ترتدى عباءة الفكر والدين .

ووسط هذا الطوفان والفوضي كان على الإسلام أن يميز بين المسلمين والكفار ، وبين حزب اللّه وحزب الشيطان ، ويتعامل مع هذا التقسيم بكل حسم حماية

(١) البوذية : ديانة وثنية هندية تنسب إلى رجل يلقب بـ « بوذا » واسمه « سذهاتا » ولد من أسرة ثرية وذات سلطان ، لكنه نزع إلى العزلة والزهد والتنسك لكن على غير هدى من وحي أو دين إلهي ، مما جعله يبتدع مبادئ وأخلاقا وسلوكا ويشكل نظاما إجتماعيا ودينيا يميل إلى الإلحاد والوثنية وكان ظهوره في القرن السادس قبل الميلاد ، ومن عقائدها :

١- الألوهية : محاربة الاعتقاد بوجود اللّه وتنادي بالإلحاد ، وبعد وفاة بوذا عبدوه وأقاموا له التماثيل والمعابد .

٢- قانون الجزاء : يعتقد البوذيون أنه لابد من الجزاء على الأعمال خيرا أو شرا ولكن في الحياة الدنيا ، فهم ينكرون البعث والجزاء بعد الموت وينكرون الجنة والنار .

٣- تناسخ الأرواح : يعتقدون أنه من مات انتقلت روحه إلى حي جديد ، فإذا مات الثاني انتقلت إلى الثالث وهكذا إلى ما لا نهاية .

٤- إلغاء نظام الطبقات : يقولون يتساوى الناس في الحقوق والواجبات .

٥- التسول والبطالة : البوذية توصي أتباعها بالتخلي عن أموالهم وعقاراتهم ومد اليد للآخرين بالتسول . معجم ألفاظ العقيدة [ص : ٧٥ ، ٧٦]

للعصبة المؤمنة الأولى من الانحراف أو اختلاط الأفكار والرؤية العقائدية والتأثر بما يتحرك حولها من فوضى وتعاليم متضاربة لم ينزل اللّه بها من سلطان .

وخلال سنوات النبوة كان المسلمون لا يتنازعون فى شيء إلا ويردونه إلى اللّه ورسوله وكان وجود النبى صلى اللّه عليه وسلم بينهم عاملا من عوامل الأمن والاستقرار النفسى والاطمئنان العقائدى والتيقن من صحة ما يقومون به من سلوك سواء على الصعيد الشعائرى الدينى أم على صعيد مفردات الحياة السياسية والاجتماعية .

ولكن .. من كان يعبد محمد فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد اللّه فإن اللّه حى لا يموت ، وهكذا صعدت روح النبى الطاهرة إلى مكانها الذى قدره اللّه لها فى أعلى الدرجات ، وبدأ المسلمون مرحلة جديدة لا يعيش فيها النبى بين ظهرانيهم ليرجعوا إلى كلمته الفصل فى كل صغيرة وكبيرة ، لكنه ترك بينهم تراثا من الأحكام والتعاليم والقواعد والتوصيات وأمرهم أن يعضوا عليها بالنواجذ حتى يسلموا فى الدنيا والآخرة .

وكما هو الحال فان الكثيرين اتبعوا منهاج النبى الصحيح وآخرين حاولوا تحريف التعاليم واتباع الأهواء وتبديل كلام اللّه واستخدام الحق يريدون به الباطل ، ومن هنا بدأت مرحلة شديدة الحساسية فى تاريخ الإسلام ، فلم يقتصر اختلاف التأويلات والتباينات الفكرية والسياسية على اجتماع السقيفة الذى اختير فيه الصحابى الجليل أبو بكر الصديق للخلافة ، لكن تباينات عديدة ظهرت ، وأهواء جامحة برزت على السطح ، بعضها تجلت فيه المصلحة الدنيوية حين امتنع بعض المرتدين عن دفع الزكاة لخليفة رسول اللّه وأمير المؤمنين أبى بكر الصديق ، وزعموا أن الزكاة إنما كانت تدفع للنبى وحده وعطلوا بذلك حكما من أحكام اللّه الأساسية وركنا من أركان الإسلام الخمسة ، وبعضها اكتست فيه المصالح عباءة سياسية وفقهية ودينية كما حدث فى الخلاف الذى فجره معاوية بن أبى سفيان فى خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب

رضوان اللّه عليه ، وبعضها ارتدي عباءة تأويل الآيات والأحاديث وتطبيق الأحكام الصحيحة فى غير مواضعها المقررة شرعا كما فعل الخوارج الذين أعلنوا تمردهم على جيش على بن أبى طالب بعد قبوله التحكيم فى معركة صفين ، وربما كانت هذه الحادثة الأخيرة إيذانا بانفجار بركان التأويلات الخطرة فى العقيدة والفقه الإسلامى ، وشرارة البدء لفكرة التكفير التى ألقت بظلالها على عشرات الأحاديث السياسية فى كافة العصور الإسلامية بعد ذلك وحتى هذا العصر الذى نعيش فيه اليوم على مشارف الألفية الميلادية الثالثة .

فى صفين تجسدت المأساة الأولى فى التاريخ السياسى الإسلامى وقام البعض بإلباس السياسة ثوب الدين ، وخلط بين الخاص والعام ، وبين المسلم والكافر وبين ما هو دفاع عن الإسلام وعن العقيدة ، وما هو دفاع عن سلطة أو مصلحة ، وانفتحت بوابة التكفير من حلبة السياسة لكنها فى نهاية الأمر سعت إلى ارتداء عباءة الدين والتمسح بمسوح الفقه الإسلامى وعقيدة التوحيد القويمة .

صفين[1] .. المأساة

انفجرت الفتنة الإسلامية الكبرى بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان وحين تمرد معاوية بن أبي سفيان على خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضوان اللّه عليه ورفض مبايعته للخلافة وتأليب الناس فى دمشق على خليفة رسول اللّه وبعد العديد من المواجهات السياسية العسكرية التقى الجانبان فى صفين وكاد حزب معاوية يتلقى هزيمة ساحقة على أيدي جنود الخليفة لولا أن أشار عمرو بن العاص على

(١) هي : ما بين أعالى العراق وبلاد الشام تقع صفين ، تلك البلدة التي خلدها التاريخ ، وخلدت تاريخا ظاهرا في حياة الامة العربية والخلافة الإسلامية ، وألوان المذاهب الدينية والسياسية التي ولدتها حرب صفين ، ونشرت أطيافها في ربوع الدولة الإسلامية ، تلك الحرب التي استنفدت من تاريخ الدم المهراق مائة يوم وعشرة أيام ، بلغت فيها الوقائع تسعين وقعة فيما يذكر المؤرخون . معجم البلدان « صفين »

معاوية باللجوء إلى أن يرفع معاوية وجنوده المصاحف على أسنة الرماح كناية عن رغبتهم فى الكف عن القتال والاحتكام إلى كتاب اللّه وتلا أحد رجال معاوية الآية ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٣] وهكذا سجل التاريخ هذا الاستخدام للآيات لأغراض خاصة ، ووفق قراءة تستهدف تحقيق جزء من الخدعة التى أعدها معاوية وابن العاص لعلى وأصحابه رضوان اللّه عليهم .

ورغبة فى حقن دماءالمسلمين الطاهرة مال أصحاب على إلى التحكيم ونصحوه بقبوله رغم أن هزيمة معاوية وإظهار الحق بقوة السلاح كانت قاب قوسين أو أدنى لصالح خليفة المسلمين وأتباعه .

وعندما قبل على بن أبى طالب التحكيم نزل هذا الخبر على بعض أتباعه كوقع الصاعقة وأعلن هذا الفريق من أصحاب أمير المؤمنين رفض مبدأ التحكيم وثاروا عليه مدعين أن الفصل فى موضوع الخلافة لا يصح أن يوكل إلى البشر وقالوا « لا حكم إلا للّه » وانفصلوا عن جيش على وساروا بالقرب من الكوفة وجعلوا من عبد اللّه بن وهب الراسى أميرا عليهم وسموا بـ « الحرورية » .

ولم تقف الفتنة عند هذا الحد ولكن وقائع التحكيم شهدت خدعة أخرى تم ترتيبها بعناية وكانت سببا فى مزيد من الفرقة وأدت إلى تفاقم هذا الانفجار البركانى فى جسد الأمة وتطاير حممه فى كل اتجاه على المستوي السياسى والفكرى والعسكرى والفقهى بل وعلى مستوى الإيمان والكفر من وجهة نظر الخوارج .

فقد اختار على بن أبى طالب أبا موسى الأشعري ممثلا له فى التحكيم ، واختار معاوية بن أبى سفيان عمرو بن العاص واجتمع الحكمان فى « دومة الجندل » فى شهر شوال سنة ٣٧ هجرية الموافق شهر مارس عام ٦٥٨ ميلادية ، واستطاع عمرو ابن العاص بدهائه أن يقنع أبا موسى الأشعرى بخلع كل من على ومعاوية وتولية

عبد اللّه بن عمرو خليفة للمسلمين وكانت خدعة كبرى أدت إلى نتائج بالغة السوء فى تاريخ الإسلام والمسلمين ، فلم يكد يعلن أبو موسى الأشعرى خلع على حتى قام عمرو بن العاص قائلا: « أيها الناس هذا أبو موسى شيخ المسلمين وحكم أهل العراق ومن لا يبيع الدين بالدنيا وقد خلع عليا وأثبت معاوية » !

واستاء نفر من أصحاب على من نتيجة التحكيم بعد أن عين معاوية أميرا على المؤمنين وخرجوا عليه وانضموا إلى «الحرورية » وسموا بـ « الخوارج » الذين رفضوا الانضمام لكلا الفريقين بعد مأساة التحكيم ، وقد انقسم الخوارج إلى عشرين فرقة صبت غضبها البركانى على الكثير من صحابة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وأدت هذه الفتنة الكبرى إلى التأثير فى أفكارها ومعتقداتها حتى وصل الأمر إلى أنهم وزعوا أحكام التكفير على الصحابة المقربين من النبى صلى اللّه عليه وسلم ، فقاموا بتكفير عثمان بن عفان وطلحة والزبير وعمرو بن العاص وأبى موسى الأشعري وكل من رضى بالتحكيم وصوب الحكمين أو أحدهما ، وأوجب الخوارج الخروج على السلطان الجائر وقتاله وامتدت اجتهاداتهم الفقهية وفق هذا المنهج الخطر إلى الكثير من أحكام الإسلام وتأثر بهم عدد من المسلمين وانعكست أفكارهم وتأويلاتهم على عدد من الفرق التى شهدتها الساحة السياسية والفكرية عبر العصور الإسلامية المختلفة .

ومن صفين كان الانفجار البركانى الأول فى تاريخ التكفير فى الإسلام ، فبعد أن كان المؤمنون يميزون أنفسهم بتعاليم الإسلام عن الأمواج المتلاطمة من الضلال حولهم فى الجزيرة العربية وعلى مقربة منهم فى فارس والهند وأوروبا وغيرهم ، بدأ الخوارج طريقا جديدا انحرفوا به عن الإسلام الصحيح وأطلقوا أحكام التكفير على رموز إسلامية خالدة بل وعلى أمراء للمؤمنين رافقوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فى رحلة الدعوة وتحملوا أعباء الإسلام بعد رحيله صلوات اللّه عليه .

ولعل الملاحظة الأساسية التى تكشف عنها بجلاء أزمة صفين أن المنطلق الذى حرك هذا التيار البركاني فى التكفير كان « السياسة » ، فالصحابة الذين تقاتلوا فى جيشى على ومعاوية كان كل فريق منهم يرى أن الحق فى صفه ، وكان الصراع على السلطة ومن يتولي ولاية أمر المسلمين عقب اغتيال الخليفة عثمان بن عفان ، أى أن الصراع تأسس على معايير دنيوية ولم يتضمن خلافا دينيا أو عقائديا يدفع إلى كل هذا القتال الضاري وإراقة دماء المسلمين وتشتيت شملهم لسنوات طويلة بعد ذلك ، كانت السلطة والسياسة هى سبب الصراع حتى وإن كان كل فريق من الفريقين يري فى موقفه اتساقا مع تعاليم الإسلام ومبادئ الدين ، وكان الخروج عن على ومعاوية سياسيا فى الأساس ، فالحرورية لاشك وأنهم شعروا بهذا النصر القريب الذى تأكد عندما تم القبول بالتحكيم من جانب على بن أبي طالب ، كان النصر قريبا ولذلك فقد كانت صدمتهم مدوية فى هذا التحكيم ، وحتى هؤلاء الذين تماسكت إرادتهم وانتظروا حتى يتم الإعلان عن نتائج التحكيم لم ينجحوا فى المقاومة بعد ذلك وأعلنوا الخروج على الجانبين وبدأوا فى تكفير أخلص وأصدق صحابة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ونخبة من رموز الرعيل الأول فى الإسلام .

وعلى هذا فان آراء الخوارج وقصة نشأتهم إنما تجعل منهم بالأساس فرقة سياسية وليست حركة دينية ، ولكنهم قاموا بعد ذلك بإضافة بعض القضايا الفكرية والفقهية على موقفهم السياسي وبدءوا فى إطلاق بعض الأحكام الفقهية وتخصيص نظرات حول حقيقة الإيمان وشروطه فقالوا إن الأعمال جزء مكمل للإيمان ، فمن يرتكب ذنبا أو كبيرة من الكبائر يعتبر مرتدا كافرا بل لقد أوجبت بعض فرق الخوارج منها الأزارقة قتل مرتكب الكبيرة مع أولاده ونسائه .

وبهذه التنظيرات الفقهية الجديدة انفتح باب أعتى لرياح هائلة الأثر على الإسلام والمسلمين ، وإذا كان قد سهل على الخوارج أن يزعموا كفر عثمان وطلحة وعمرو

ابن العاص وغيرهم من الصحابة فقد كان يسيرا عليهم أن يطلقوا أحكام التكفير والقتل باسم الإسلام على من شاءوا من المسلمين بعد ذلك ، بل إن الركن الأول فى نظريتهم الفقهية جاء مكملا مسيرة التكفير ومعلنا أن مرتكب الكبيرة كافر يجب قتله مع أولاده ونسائه دون شفقة أو مراجعة أو محاكمة .

كان هذا البركان الذى انفجر فى صفين عنيفا وجاءت الظروف السياسية التى مرت على بلدان الإسلام بعد ذلك أشد عنفا ووفرت بيئة خصبة لبعض الأفكار الشاذة والعقائد الغريبة والابتداعات التى لا علاقة لها بما أنزله اللّه على نبيه صلى اللّه عليه وسلم فى مكة ، وكانت أحكام الإسلام ضحية هذا البركان وضحية كل تلك الأفكار البائسة التى سيطرت على تاريخ الفكر الإسلامى بعد ذلك .

وبدت فكرة التكفير العنيفة التى انطلقت مدوية فى صفين وطالت من رموز الأمة مفتاحا ذهبيا لحسم الخلافات السياسية بين بعض التيارات التى شهدتها مسيرة الحضارة الإسلامية وسلاحًا لا مثيل لقوته فى تصفية الخصوم فى مجال الفكر والسياسة ، ولم يكن هذا السلاح حكرا على أحد لكنه كان فى متناول اليد والطريق الأسهل لكثير من التيارات والأحزاب المنحرفة فى تاريخ الإسلام .

○ ○ ○

الفصل الثاني

النيران تشتعل

لم يكن أحد فى حاجة إلى استئذان حتى يفكر كما يشاء ويرى ما يشاء وينسب رؤيته الخاصة إلى الإسلام ، وبدأت موجة الفرق الإسلامية تغزو كافة العواصم وكان سهلا أن يكون التكفير سلاحا تدافع به كل فرقة عن نفسها فى مواجهة الفرق الأخرى .

يميل مؤرخو الفرق الإسلامية إلى البدء فى هذا المبحث عبر حديث ينسب إلى رسول اللَّه صلي اللَّه عليه وسلم ويعتقد بعض المؤرخين أن صحته فى حاجة إلى مراجعة يقول بما معناه : « ستفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة كلهم فى النار إلا واحدة .. قيل ومن الناجية ؟ قال أهل السنة والجماعة قيل .. ما السنة والجماعة قال ما أنا عليه اليوم وأصحابي »[1] .

ورغم تأكيد الحديث على دخول مختلف الفرق الضالة إلى النار فقد حدد شروط الفرقة الناجية فيما كان عليه رسول اللَّه وأصحابه ، أى سلوك الرعيل الإيماني الأول فى فجر الدعوة الإلهية التى تلقاها النبى محمد صلى اللَّه عليه وسلم ، ولكن هذا الحديث لم يحسم الأمر فى تحديد شرائط الفرقة الناجية بل اكتفى باشتراط اتباعها لسنة الرسول الكريم وسرعان ما تسابقت كل فرقة مدعية أنها هى وحدها التى تتبع سنة الرسول وصحابته ، وأنها من ثم الفرقة الناجية الوحيدة .

واختلط الأمر على المسلمين إذ لم يكن هناك مقياس دقيق لمواصفات الفرقة الناجية وإذا كان القرآن الكريم قد أكمل الرسالة ورسم طريق الهدى للمسلمين كافة مصداقا للآية الكريمة ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : ٣] ، وجاءت

(١) رواه ابن ماجه [٣٩٩٣] عن أنس رضى اللَّه تعالى عنه ولفظه : « إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة وإن أمتي ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة » وقال الألباني : صحيح .

السنة الشريفة فأوضحت مرامى النص القرآنى وحكمته البالغة وربطت بينه وبين أحداث الحياة الجارية للمسلمين فإنه قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أن المناخ الروحي لهذه المرحلة المبكرة للإسلام كان لابد من أن يشجب كل خلاف وأن تنطلق دفعة الينابيع القوية خلال حكم النبى وأصحابه مبرأة من جميع أوجه الصراع العقائدى وصور النزاع حول الفروع ولكن البيئة التى نشأ فيها الإسلام والظروف التى أحاطت به كانت سببا فى بعض المشكلات التى جرت بعد ذلك من ناحية التأثير الثقافى والفكري على المسلمين .

وقد نشأ الإسلام فى بيئة يهودية مسيحية فارسية صابئية حددت بصورة قاطعة تاريخ الدين الجديد ومصيره من حيث اضطرار أتباعه إلى مواجهة الرواسب الدينية والعصبية فى المنطقة ولقد انضم المسلمون الجدد إلى حظيرة الدين الجديد مع ما تنطوى عليه نفوسهم من آثار رسبتها المعتقدات السابقة وكان لها أكبر الأثر فى ظهور النزاعات المختلفة التى شجبت وحدة المسلمين وكانت سببا فى الانقسام والتفرق .

وكانت رسالة الإسلام تعمل دوما على علاج هذه الرواسب العالقة فى نفوس ووجدان الجيل الأول من المسلمين ورغم ذلك انفجرت النعرة القبلية عند بعض الأمويين ، وعاند البيت الأموى الرسول الكريم فى مطلع الدعوة خشية أن تضيف النبوة مزيدا من المجد والرفعة على بنى هاشم الذين ينتسب إليهم النبى - صلى اللّه عليه وسلم - ولم يكن غريبا أن هذا البيت الأموى كان السبب فى انفجار أخطر الأزمات فى تاريخ الإسلام والتى كانت لها ظلالها السوداء على مجمل التاريخ السياسي الإسلامى .

وحين اعتلى الأمويون كرسى السلطة كان لبعض منهم ممارسات لا تتفق مع روح الإسلام وعدالة الشريعة الإسلامية ، وكان لمناصبتهم العداء لبيت النبوة أثر

كبير على فقدانهم الشرعية فى نظر الكثيرين من جماعات المسلمين فى هذا العصر ، وفى محاولة للحصول على هذه الشرعية كان الأمويون يسعون إلى الاستناد إلى الدين فى تبرير بعض السلوك السياسي العنيف الذى يلجأون إليه لمواجهة الجماهير ، ونصبوا أنفسهم حماة للفكر الإسلامى الصحيح الذى كان من وجهة نظرهم هو الفكر الذى تدين به القصور الأموية ، ولما أنشأ الأمويون - للمرة الأولى - فكرة الخلافة المتوارثة على إمارة المؤمنين كانت تلك بدعة جديدة لم يعرفها الإسلام من قبل ، ولذلك وجدوا من بعض الفقهاء من يؤسس نظريا لهذه البدعة ويعمل على تلوينها بصبغة إسلامية ودينية حتى تحظى على رضا الجماهير وتحقق الاستقرار والشرعية المطلوبة للحكم .

وفى مقابل هذا المنهج الأموي كانت واقعة صفين قد فتحت الباب لأفكار وتفسيرات مختلفة للغضب والتعبير عن السخط السياسي فى أشكال متعددة ارتدى كثير منها رداء إسلاميا أيضا ، وإلى جانب الخوارج الذين كانوا الثمرة الغاضبة الأولى لواقعة التحكيم فى صفين لم يكن أحد فى حاجة إلى استئذان حتى يفكر كما يشاء ويرى ما يشاء وينسب رؤيته الخاصة إلى الإسلام وبدأت موجة الفرق الإسلامية تغزو كافة العواصم وكان سهلا أن يكون التكفير سلاحا تدافع به كل فرقة عن نفسها فى مواجهة الفرق الأخرى .

○ ○ ○

الشيعة [1]

لقد كانت مشكلة الإمامة - وهى مشكلة سياسية فى أصلها - هى السبب فى ظهور فرقتى الخوارج والشيعة وهاتان الفرقتان تتقابلان تقابل التضاد كما يقول الشهرستانى فى كتابه التاريخى « الملل والنحل » فبينما يكفر الخوارج أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضوان اللّه عليه وأصحاب التحكيم ويتربصون به حتى يقتلوه.. نجد الشيعة من ناحية أخرى يتمسكون بإمامة آل البيت ابتداء من الإمام على كرم اللّه وجهه بمقتضى الوراثة الدموية للرسول ومن ثم فإن على بن أبى طالب هو أحق المسلمين فى نظرهم بالخلافة بعد الرسول صلى اللّه عليه وسلم أى أنهم شايعوا عليا وانتصروا له فسموا بشيعة على أو شيعة آل البيت .

على أن الشيعة لم يختلفوا عن أهل السنة والجماعة فيما يختص بالعقيدة فى بداية الأمر فقد انحصر الخلاف بينهما أولا فى دائرة الإمامة وهى قضية سياسية فى المقام الأول ، ودار النقاش والجدل حول من هو أحق المسلمين بها ، ولا جدال فى أن هذه المسألة سياسية فى المقام الأول وليست فقهية وليس لها علاقة بصحة عقيدة التوحيد ولم تكن فرقة الشيعة فى البداية إلا فرقة سياسية تعبر عن موقف حزبى سياسي إسلامي فحسب .

وقال الشيعة بوجوب النص على الإمام أن اللّه قد أمر نبيه بالنص على إمامة على

(١) الشيعة : هم الذين شايعوا عليا رضى اللّه تعالى عنه على الخصوص وقالوا بإمامته وخلافته نصا ووصاية إما جليا وإما خفيا واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عن أولاده وإن خرجت فبظلم من غيره أو تبقيه من عنده ، وقالوا الإمامة ركن من أركان الدين لا يجوز للرسول صلى اللّه عليه وسلم إغفاله وإهماله ، ويجب القول بالتعيين والتنصيص ، وقالوا بعصمة الأئمة عن الكبائر والصغائر ، وهم خمس فرق : كيسانية ، وزيدية ، وإمامية ، وغلاة ، وإسماعيلية ، وهناك فرق أخرى انقسمت عن هذه الفرق .

وكذلك عصمة الإمام وأحدثوا مقالات عدة منها الموقف والغيبة الرجعة ، ورغم هذه الخلفية الحزبية السياسية تطور الأمر إلى ماهو أبعد من ذلك ونشأت ملامح فكر جديد غريب عن الإسلام عند بعض فرق الشيعة حتى إن بعض الغلاة منهم قال : « بتأليه » الإمام على بن أبى طالب وهم اتباع اليهودى عبد اللّه بن سبأ وتعددت فرق الشيعة بصورة كبيرة وبدأت حركة تأسيس فقه خاص ومنهاج مختلف عن هذا المنهج السائد خلال العصر الأموي ويمكن حصر فرقهم فى ثلاث فرق رئيسية هى :

الأولى : الزيدية[1] . **الثانية** : الإمامية[2] . **الثالثة** : الغُلاة .

ولاشك أن كل فرقة من تلك الفرق رأت نفسها أنها على الحق المطلق وأن من دونها على ضلال ، ونظرا لبعض الأفكار الشاذة التى أدخلها بعض الغلاة على هذا الفكر فقد ساد عداء واسع بين الشيعة وأهل السنة الذين إلتزموا بتبعية الخلفاء الأمويين بعد معركة صفين وارتضوا بالحكم المتوارث للبيت الأموي وكان لهم فقههم الخاص المختلف مع مذهب الشيعة.

ولم يكن غريبا بعد ذلك أن تجد من بين متطرفى الشيعة من يطلق أحكام الضلال

(١) الإمامية : وهم القائلون بإمامة علي عليه السلام بعد النبي صلى اللّه عليه وسلم نصا ظاهرا ويقينا صادقا من غير تعريض بالوصف ، بل إشارة إليه بالعين ، ومن عقائدهم : الطعن والتكفير في أكابر الصحابة . - راجع معجم ألفاظ العقيدة [ط . عبيكان] .

(٢) الزيدية : وهم أقرب الفرق الشيعية من أهل السنة وترجع نسبتها إلى مؤسسها زيد بن علي زين العابدين . ومن عقائدهم : أنهم يجيزون الإمامة في كل أولاد فاطمة سواء كانوا من نسل علي أم الحسين ، والإمامة ليست بالنص عندهم . ولا يقولون بالمتعة ويقرون خلافة أبى بكر وعمر بن عثمان ، ويميلون لَى الاعتزال فيما يتعلق بذات اللّه والجبر والاختيار ويقولون بعصمة أربعة من أئمة البيت هم : علي ، وفاطمة ، والحسن ، الحسين ، وغيرها من العقائد التي أهون تطرفا من غلاة الرافضة . راجع معجم ألفاظ العقيدة [ط . عبيكان]

على من يتبع هذا المذهب ويقوم بتكفير الصحابة المقربين للنبى صلي اللّه عليه وسلم وفى المقابل كان بعض فقهاء أهل السنة يؤكدون على ضلال الشيعة وانحراف مذهبهم الفقهى والسياسي ، ولم يتأخر البعض طبعا عن تكفير كل من قال بألوهية الإمام على أو أن الرسالة كانت لعلى دون النبى محمد صلى اللّه عليه وسلم .

وهكذا بدأت القضية سياسية ثم تحولت إلى مبحث فى الفقه وصحة الاعتقاد وصارت مادة خصبة لتوزيع أحكام التكفير يمينا ويسارا مع انقطاع كامل فى الحوار بين هذه الأفكار على أرضية سليمة ، وربما كان السياسة أيضا هى السبب فى انقطاع هذا الحوار نظرا للبطش الشديد الذى تعامل به الأمويون مع آل البيت وأنصارهم على مدار تاريخ حكم الأسرة الأموية باستثناءات محدودة بينها مثلًا فترة حكم الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز .

○ ○ ○

المرجئة [1]

وفى مقابل اشتداد موجة التكفير المتبادلة بين التيارات المستحدثة على المسيرة الإسلامية ، وانتشار موجة تكفير عامة المسلمين فى حالة ارتكاب الكبيرة على اعتقاد الخوارج ، فقد نشأت فرقة أخرى تعارض هذا الاتجاه المتشدد وتدعو إلى نبذه كرد فعل عنيف على الراديكاليين الجدد فى حظيرة الإسلام ، ومقابل التشدد إلى حد التكفير ظهرت فرقة المرجئة التى بالغت فى التساهل إلى حد التفريط .

وقد نشأت المرجئة فى هذه الفترة وأصحابها لا يكفرون أحدا بذنب بل يتركون أمر هؤلاء وأولئك إلى اللّه سبحانه وتعالي الذى يعلم أسرارهم ويطلع على خفايا صدورهم .

والإرجاء لغة يعنى : التأخير ، والايمان عند المرجئة هو المعرفة باللّه تعالى وبرسله ، وأما ما سوى المعرفة من الطاعة والعمل فليس من الإيمان فى شيء حسب اعتقادهم ، ولهذا فلقد أخر المرجئة العمل على الإيمان وقالوا لا تضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وقالوا بإرجاء حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة فلا يقضي عليه .

المرجئة فى هذا الاتجاه كانت تعمل بشكل حاد ضد الخوارج الذين كفروا عليا وكثيرا من الصحابة وربطوا العمل بالايمان إلى حد تكفير مرتكب الكبيرة ، وكان للمرجئة أثر سياسي كبير أيضا حيث استخدمهم الأمويون لضرب الخوارج والتأكيد على أن ما يقترفوه من ذنوب أو معاصٍ لا يسقط عنهم الإيمان والإسلام وبالتالى فإن شرعيتهم فى السلطة قائمة .

---

(١) المرجئة : وهم القائلون بأن العبد لا يضرة ذنب ، وأنه لا فعل له البتة وإضافة الفعل إليه بمنزلة إضافته إلى الجماد . الجامع الصغير [٥٠٤٢] .

وقيل : إن أول من قال بالإرجاء هو الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب[1] ولكنه لم يؤخر العمل عن الايمان كما تقول المرجئة ولكنه حكم بأن صاحب الكبيرة لا يكفر إذا ترك الطاعات وأن ترك المعاصى ليس من أصل الإيمان حتى يزول بزوالها وعلى هذا فإننا نري كيف أن النشأة الأولى لهذه الفرق البكر فى الإسلام كان بسبب سياسى أولا ، ولم تلبث هذه الفرق أن كفرت بعضها بعضا نتيجة لتفسير كل منها لمدلول الإيمان وعما إذا كان أمرا قلبيا محضا أم مرتبطا بالعمل .

فكفرت الخوارج مرتكب الكبيرة بل أباح بعضهم دمه ، وأرجأت المرجئة الحكم عليه إلى يوم القيامة ، أما المعتزلة وإن كانت معظم مباحثهم تدور حول مسائل الأصول إلا أنهم اتخذوا موقفا مختلفا من مسالة مرتكب الكبيرة ووضعوه فى « منزلة بين المنزلتين » بين الكفر والإيمان .

○ ○ ○

(١) ذكره الشهرستانى في الملل والنحل .

الاختلاف حول الأصول

وإذا كان الخلاف فى مسألة الإمامة وهى من مسائل الفروع قد أدى إلى نشأة الفرق ذات الطابع السياسي .. فإن الجدل الذى ثار حول أصول العقيدة أدى إلى ظهور فرق ذات طابع دينى أصولى فرأينا أصحاب الجبر والقدرية والكلامية والمشبهة والحشوية يتخذون مواقف مبكرة بصدد الذات الالهية وصفاتها وأفعال العباد وبذلك يضعون الأسس الأولى لنشأة علم الكلام الإسلامى الذى ازدهر على يد المعتزلة والأشاعرة وأثار ثائرة مدرسة ابن تيمية ودفعها إلى نقد مناهج المتكلمين وآرائهم .

لقد أفضت مشكلة الخلافة السياسية إلى خلافات دينية واسعة ولقد تأزمت تلك المشكلة على عهد الصحابة فثار حولها نزاع سياسى وانقسم المسلمون بعدها إلى أحزاب وفرق سياسية يرى كل منها رأيا فى من هو أحق بالخلافة فظهرت مشكلة مرتكب الكبيرة فسأل البعض عن حقيقة إيمان من يتبع عليا أو معاوية أهو مؤمن أم غير مؤمن؟ وأدى هذا البحث إلى النظر فى مسألة الإيمان وحقيقته وفى مرتكب الكبيرة وهكذا تحولت مشكلة الخلافة وهى ذات طابع سياسي إلى مشكلة فقهية وأدت إلى خلافات دينية واسعة .

وقد كان من الممكن أن تبقى كل هذا الخلافات فى دائرة الفروع فلا تشجب وحدة الأمة الإسلامية وتفرقها شيعا لولا أن تدخلت عوامل ومؤثرات أجنبية فى حركة هجوم مستتر على الدين الجديد وعقائده ، الأمر الذى كان له أثره فى تعميق شقة الخلاف بين المتنازعين فضلا عن تحويل الخلافات السياسية إلى خلافات عقائدية أذنت بظهور الجدل حول العقائد فى صورة ما سمي بعد ذلك بعلم الكلام الإسلامى .

○ ○ ○

الثقافات الأجنبية وحركة التكفير

لقد فتح المسلمون بلادًا ذات ثقافات غريبة مثل فارس ومصر والشام وكان الفرس يؤمنون بالزرادشتية والمانوية والمزدكية . كما انتشرت اليهودية والمسيحية فى مصر والشام وكانتا من أملاك البيزنطيين المسيحيين وعندما أحست هذه الشعوب المغلوبة بعجزها عن مقاومة جيوش المسلمين انبرى مثقفوها يشنون حملة ثقافية مضادة على العقيدة الإسلامية للتشكيك فيها مستهدفين إضعاف الروح الإسلامية وتفتيت وحدة المسلمين .

ولما كانت الفلسفة اليونانية وأساليب المنطق اليونانى قد ذاعت وانتشرت فى هذه المنطقة قبل ظهور الإسلام فقد كان على الأديان التى ظهرت على هذه الأرض أن تواجه قضايا هؤلاء الفلاسفة فى مرحلة مبكرة ، ولم تلبث تلك الأديان أن تأثرت بها ، وكان ذلك واضحا فى التفسير لرموز التوراة على يد فيلون السكندرى ثم جاءت المسيحية وظهرت حركة علماء الكلام المسيحى وتسلح المدافعون عن الدين بالمنطق اليونانى وبالفلسفة اليونانية ولاسيما بالافلاطونية المحدثة .

وظهر الجدل بينهم حول اللّه وصفاته والنبوة والوحى وحرية الإرادة وعبادة الايقونة والثالوث الأقدس وسر التجسد وطبيعة المسيح وانقسم المسيحيون أيضا بصدد هذه المسائل إلى يعاقبة ونساطرة وملكانيين ، وحينما احتك المسلمون بالمسيحيين والزنادقة اضطروا إلى التسلح بالفلسفة وبالمنطق الأرسطى لمواجهة هؤلاء الخصوم الذين أتقنوا فن الجدل الدينى فكان هذا سببا كافيا لنشأة علم الكلام وبدء موجة جديدة من الأفكار الخارجة عن العقيدة الصحيحة ، ومن ثم موجة جديدة من التكفير والجدل حول صحة الإيمان ، وما لبثت أيضا أن امتطت السياسة هذه الحركة الفكرية الجديدة وانحرفت بها عن مسارها وسخرتها لخدمة أهدافها الخاصة.

وقد كان من الأسباب الأخرى لنشأة علم الكلام هى الآيات المتشابهات فى

القرآن التى يسعى بعض المفسرين إلى تفسيرها بوضوح وهى آيات قرآنية قد يرى البعض أنها متعارضة الأمر الذى أدى إلى نشأة علم التأويل ، وهذا العلم استخدمته الفرق الإسلامية الطارئة على الإسلام للتدليل على صحة مواقفها .

وقد اختلف المسلمون فى تفسير تلك الآيات ولم يتضح لهم هدف الشارع منها ، ويقول القرآن الكريم ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران : ٧] .

وقد أثيرت أيضا مسألة الجبر والاختيار استنادا إلى آيات متشابهات مثل قوله تعالى ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧] من الآية ، وهذه آية صريحة فى الجبر حسب رأى الفرق الجبرية ومثل ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] وكذلك قوله تعالي : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : ١٠] ليختار أي الطريقين وهذه الآية صريحة فى الاختيار أي فى القول بحرية الإرادة ، ومن قلب تلك الأحداث الساخنة والجدل فى الآيات تحت تأثير صدمة الاستخدام الأول للآية القرآنية حول التحكيم فى صفين نشأت عشرات الفرق الأخرى التى تراشقت بتهم التكفيروالتكفير المضاد على مدار وجودها الزمنى بدءا من العصر الأموي وما تلاه من عصور الخلافة الإسلامية .

○ ○ ○

الجبرية [1]

أول من قال بالجبرية هو الجهم بن صفوان فى العصر الأموى وأظهر مقاله فى مدينة ترمذ وجادل فيها مقاتل بن سليمان وقد رد جهم على دعاوى « السمنية والحسيين » والإنسان فى نظره مجبور فى أفعاله فلا قدرة له ولا اختيار وهو كالريشة المعلقة فى الهواء إذا تحرك الهواء تحركت وإذا سكن الهواء سكنت هى أيضا ، وأن اللّه هو الذى قدر على الإنسان أفعاله .

ومن آرائه الكلامية نفى الصفات الإلهية التى تؤدي إلى تشبيهه تعالى بمخلوقات وإثبات صفتي الفعل والخلق لله وحده إذ لا يصح وصف المخلوقات بهما ومن ثم فهى مجبورة على أفعالها وكذلك نفى أن يكون اللّه متكلما وأن يكون مرئيا وقال بخلق القرآن وفناء الخالدين وزعم أن الجنة والنار تفنيان .

ونال الجهم حظا وافرا من التكفير ، فقد كفر جمهورا من الفرق الأخرى فكفرته القدرية فى قوله بأن اللّه تعالى خالق أعمال العباد ،ويقول المؤرخ الإسلامى البارز « البغدادي » إن الجهم قتل فى مرو على يد سلم بن أحوز المازنى فى آخر زمان بن مروان عام ١٢٨ هجريا ، وكان قتله لأسباب سياسية رغم أن الأمويين كانوا يحبذون مقالة الجبر لموافقتها لموقفهم السياسي من حيث أنها تؤيد ما يذهبون إليه من أن اللّه هو الذي قد أراد وقدر أن يصل الأمويون إلى الحكم والخلافة وحكم المسلمين وكذلك فى القولة بالجبر عذرا عن الإتيان ببعض المعاصي التى كان الأمويون

(١) الجبرية : وهم أتباع جهم بن صفوان الذي قال بأن الأفعال مقدورة للرب وليس للعبد ، والمؤثر فيه قدرة الرب وليس العبد ، وقد تسمى الجبرية قدرية لأنهم غلوا في اثبات القدر كما يسمى الذين لا يجزمون بشيء من الوعد والوعيد بل يغلون في إرجاء كل أمر مرجئة ، والعبد عندهم ليس بفاعل بالاختيار بل هو مجبور وغير ميسر وحركته كحركة المرتعش أو كالميت أدرج داخل الأكفان . معجم ألفاظ العقيدة [ط . عبيكان]

يقترفونها فى قصورهم الخاصة ، وهكذا كانت السياسة مرة أخرى عاملا من عوامل تشجيع بعض الفرق الإسلامية التى اتفقت مع أهواء الحكام الجدد ومسيرتهم فى إحكام السلطة على البلاد ،وتم استغلال الجبرية على هذه الصورة كما سيتم استغلال عشرات الأفكار الأخرى بعد ذلك فى خدمة الأغراض السياسية .

ومن رموز الجبرية أيضا الجعد بن درهم وهو قائل بالجبر كما قال الجهم بن صفوان ، ورغم أن الجبرية كانت توافق هوى بعض الحكام الأمويين إلا أنه يقال إن الجعد بن درهم قد قتل بأمر من هشام بن عبد الملك بسبب قوله بخلق القرآن ، وكان الأمويون لا يقولون بهذه الفكرة حتى عهد ابن عبد الملك ولم يقتل الجعد بسبب مذهبه الجبرى .. ولعلنا دون شك نلاحظ أن القتل هذه المرة جاء بسبب اعتقادى ، أي أن الخلفاء فى البيت الأموي كانوا يقتلون الناس بسبب عقائدهم التى يعتبرونها خروجا على شريعة الإسلام وكفرا يستوجب معه الحكم بالقتل ، والغريب أن الاعتقاد بخلق القرآن صار مذهبا رسميا للدولة الإسلامية خلال العصر العباسي ، والمعروف أن العباسيين كانوا من أبرز أعداء الأمويين وأن الدولة العباسية قد قامت على أنقاض الدولة الأموية ، وفى عهد الخليفة المأمون صارت فكرة خلق القرآن هى المذهب الرسمى للدولة كما سيرد ذكره بعد ذلك وهو مما يؤكد حقيقة الاستغلال السياسى من قبل السلطة الحاكمة لفكرة المذاهب والخلافات الفقهية والعقائدية للحصول على مكاسب معينة تخدم مصالحها المباشرة .

○ ○ ○

مذهب القدرية [1]

وفى مواجهة القول بالجبر نشأ المذهب المناقض له وهو مذهب القدرية أو الاختيار ، ومن أبرز القدرية أو القائلين بمذهب الاختيار هو غيلان الدمشقي وكانت له آراء كلامية أخري وقد انتشر مذهبه فى دمشق فى عهد عمر بن عبد العزيز وقتله هشام بن عبد الملك لتهجمه على بنى أمية لأنه يقول بالاختيار وهم يقولون بالجبر .

ومرة أخرى نلاحظ هذا الاستخدام السياسي ، وهذا العداء من السلطة لكل من لا يتفق مع اعتقادها ، وتكفير من لا يستجيب لأهوائها الشخصية ، الأمر الذى دفع بهشام بن عبد الملك إلى تكفير غيلان الدمشقي والحكم بقتله لأنه يقول بالقدرية « أى الاختيار » فيما يفضل الأمويون المذهب الجبري الذى يتفق مع مصالحهم فى ارتكاب ما يريدون من معاصٍ ، وفى خداع العامة من الناس بأن اختيار بنى أمية هو جبر من اللّه ، حسب قواعد هذا المذهب .

○ ○ ○

(١) وهم : نسبة إلى القدر زعموا أن العبد مستقل بإرادته وقدرته ليس لله في فعله مشيئة ولا خلق . راجع ألفاظ العقيدة [ط . عبيكان]

المشبهة [1]

هؤلاء الذين شبهوا ذات اللّه بذات غيره كما يقول البغدادي فى كتابه « الفرق بين الفرق » ومنهم « السباية » الذين سموا عليا - رضوان اللّه عليه - الها وشبهوه بذات اللّه و « البيانية » اتباع بيان بن سمعان الذى زعم معبوده إنسان من نور على صورة الإنسان فى أعضائه وأنه يفني كله إلا وجهه ومنه كذلك « المغيرية » اتباع المغيرة بن سعيد العجلي الذى زعم أن معبوده ذو أعضاء وأن أعضاءه على صورة حرف الهجاء .

ولاشك أن أهل السنة والجماعة لم يسكتوا على هذه الأفكار الشاذة التى نشأت فى زحام هذا الجدل السياسي والفقهى والعقائدي ، وكان التكفير نصيبهم فى نظر أهل السنة والجماعة هو التكفير البين وحكم عبدة الأوثان من الكفار .

○ ○ ○

(١) والمشبهة صنفان :

١- شبهوا الباري بذات غيره .

٢- شبهوا صفاته بصفات غيره .

الدرر المباحة للنحلاوي

المعتزلة [1]

أجمعت المصادر التاريخية على أن واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد المولودين سنة ٨٠ هما المؤسسان الحقيقيان لمذهب الاعتزال بعد أن تخطى مرحلة تمهيدية مبكرة على يد القدرية الأوائل وهذان القطبان من تلامذة أبو الحسن البصرى وكانا مواظبين على حضور درسه فى البصرة وعلى هذا تكون بداية حركة الاعتزال مع استهلال القرن الثانى للهجرة كما يذكر المقريزى فى خططه .

وباستثناء الخليفة المأمون فقد تميزت فترة العصر العباسي بمناصرة الخلفاء لأهل الحديث واضطهادهم لأهل الكلام لاسيما فى عصر الرشيد فقد منع الجدل فى الدين بل وزج بالمتكلمين فى السجون بعد أن تفاقم الخلاف بين الفرق الدينية الأمر الذى أوشك أن يهدد العقيدة الإسلامية ويثير الشك فى نفوس العامة من المؤمنين فتصدى العباسيون الأوائل لهذه المحنة وجعلوا من أنفسهم حماة الدين وورثة للعلم الرسولى حتى يحظوا بمكانة تضاهى مكانة العلويين عند جمهرة المؤمنين .

وفى المرحلة الثانية جاء الخليفة المأمون وتحول الوضع من اضطهاد المتكلمة وأصحاب الفرق إلى اضطهاد أهل الحديث واشتد اضطهاد أعداء المعتزلة على وجه العموم وقد ظهر هذا الصراع العنيف فى محنة خلق القرآن .

(١) وهم أتباع واصل بن عطاء ، وهي نسبة إلى الإعتزال ، وسبب تسميتهم بهذا الاسم أنه دخل رجل على الحسن البصري فقال يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادا فتفكر الحسن في ذلك زماننا وقبل أن يجب قال واصل : إنا أقول إن صاحب الكبيرة لامؤمن مطلقا ولا كافر مطلقا ، ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد فقال الحسن : اعتزل عنا واصل .
وأصول اعتقادهم خمس : العدل ، والوعد ، والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتوحيد . معجم ألفاظ العقيدة [ط . عبيكان]

فقد قام المأمون بطلب نقل كتب الفلسفة بصفة خاصة إلى الإسلام رغم ما كان يشعر به عامة المسلمين من نفور ظاهر من الاشتغال بالفلسفة وتناول قضاياها ويشير المؤرخون إلى جملة الأسباب التى دفعت المأمون إلى هذا الطريق ، ومنها : أن المأمون كان تلميذا ليحيي بن المبارك اليزيدي المتوفى عام ٣٨٤ هجريا وكان هذا الرجل من شيوخ المعتزلة وله علاقات واتصالات مع ثمامة بن أشرس النميرى المتوفى سنة ٢١٣ هجريا زعيم فرقة الثمامية المعتزلة فى زمن المأمون والمعتصم والواثق .

ويقال إن ثمامة هو الذى أغرى المأمون بالانضمام إلى حركة الاعتزال ويقول البغدادى فى « الفرق بين الفرق » إن ثمامة كان زعيم القدرية أي المعتزلة فى زمان المأمون والمعتصم والواثق وقيل إنه – هو – الذى دعا المأمون إلى الاعتزال ومن هنا نفهم كيف أقبل المأمون على كتب الفلسفة مشربا بنزعة عقلية مبكرة إذ كان متصلا منذ صباه بشيوخ الاعتزال فى عصره وعرف عنه اجتماعه بالمعتزلة وإيثاره لهم وحسن معاملتهم وتقديمهم على غيرهم من أهل النظر فى المجتمع الإسلامى على عهده .

ونحن نعرف أن المعتزلة قد اعتنقت القول بخلق القرآن وتشيعت لهذا الرأي فرق منها الثمامية والنجارية اتباع الحسين بن محمد النجار ومن النجارية الزعفرانية أتباع الزعفرانى ، وقالت الزعفرانية إن كلام اللّه غير اللّه نفسه ، وكل ما هو غير اللّه تعالى مخلوق ، ورأت المستدركة أن القرآن مخلوق ولكنها افترقت إلى فرقتين أحداهما تقول : إن رسول اللّه قال إن كلام اللّه مخلوق على ترتيب الحروف وأخرى تقول إن رسول اللّه لم يقل إن كلام اللّه مخلوق ولكنه اعتقد ذلك ودل عليه .

وقد اعتنق المأمون هذه الفكرة وأخذ يتسلح بالمنطق والفلسفة لإقامة البرهان عليها لذلك فقد طلب ترجمة كتب الالهيات فى الفلسفة اليونانية لينتفع بها

واستخدام ما فيها من أدلة وحجج لاثبات وجود اللّه وصفاته وقد جعل هذه العقيدة مذهبا رسميا فى الدولة فأذاع منشورا على المسلمين عام ٢٠٢ هجرية أمرهم فيه رسميا باعتناق مذهب خلق القرآن والاحتراز من القول بقدمه فيؤدى ذلك إلى افتراضين قديمين هما اللّه والقران معا .

وقد جمع الفقهاء على عهده واختبروا فى هذه المسألة واضطهد كل من يتشكك فى عدم اعتناقه لفكرة خلق القرآن ، وكذلك اضطهد فيما بعد رجالا كأحمد بن حنبل فأصبحت هذه الحركة الفكرية جحيما فكريا لا يطاق .

ويقول ابن خلدون فى مقدمته الرائعة إنه « عظم ضرر هذه البدعة وتلقاها بعض الخلفاء من أئمتهم فحمل الناس عليها وخالفوا أهل السلف فاستحل لخلافهم أيسار كثير منهم ودماؤهم » .

أى أن هذا الخلاف الفكري حول قضية خلق القرآن قد تحول فيما بعد إلى خلاف عقائدى واسع ، وقام واحد من أبرز خلفاء البيت العباسي باضطهاد كل من لا يؤمن بهذه الفكرة واستحلال ماله ودمه ، أى معاملته كالكفار الذين لا يؤمنون بالإسلام .

لقد كان المأمون قد اشتاط غضبا فى محاربة المعارضين لهذه الفكرة وأمر أن يمتحن الفقهاء وكبار رجال الدولة فى هذه المسألة فمن رفض منهم القول بخلق القرآن سجن وجلد مثلما حدث للإمام أحمد بن حنبل وقد استبدت بالمأمون هذه الفكرة حتى إنه كان يربطها بالعقيدة أى بصحة عقيدة التوحيد وتعجب من القائلين بغيرها كيف يظلون على ايمانهم بالعقيدة الإسلامية مع استمرارهم فى رفض فكرة خلق القرآن ، أى أنهم قد يكونون كفارا وفق هذه الفكرة ووفق هذه

الصياغة اللغوية التى عبر بها المأمون عن أفكاره حول خلق القرآن .

ورغم أن المأمون كان خليفة للمسلمين وولى أمر الرعية الممتد فى العديد من أراضى بلاد الإسلام إلا أنه جعل نفسه طرفا فى هذه المحنة الكبري التى ألمت بالفكر الإسلامى ، ويثير موقف المأمون تساؤلات عديدة عن الدوافع التى حركته إلى هذا الاتجاه ، فهل كان اهتمامه بالفكروالفلسفة واطلاعه على الإنتاج العلمى والفلسفى الغزير للحضارة اليونانية والرومانية هما السبب فى محاولاته التفرد بهذه الفكرة الغريبة وإرغامه العامة من المسلمين على اتباع فكرة خلق القرآن ؟

أم أن هناك أهدافا أخري سياسية أبعد من ذلك ؟!

والمدقق فى تاريخ الدولة العباسية يجد أنه وجدت على أنقاض دولة بنى أمية ، وساد بين العباسيين والأمويين صراع تاريخي طويل على مدار التاريخ ربما بدأ منذ وفاة النبى صلى اللّه عليه وسلم ، وكما أسلفنا فإن الأمويين كانوا قد استحسنوا مذهب الجبرية على أساس أن هذا المذهب الذى يجعل الإنسان مسيرا وليس مخيرا يتيح لهم فرصة ارتكاب المعاصى ويشيع لدى العامة من المسلمين أن وجود بني أمية فى السلطة هو بقضاء من اللّه لا يمكن الاعتراض عليه .

وفى المقابل فقد كان المعتزلة امتدادًا غير مباشر لمذهب القدرية التى تعلى من قيمة الاختيار فى حياة الإنسان ولا توافق على مقالة الجبرية وتعتقد أن الإنسان مخير فى أفعاله إلى أقصي درجة ممكنة ، وبالتالى فإن اختيار المأمون لامتداد المذهب القدرى يمكن النظر إليه باعتباره امتدادا لهذا الخلاف الواسع بين العباسيين والأمويين ، كما يمكن قراءته على اعتبار حرص العباسيين على إثبات فشل التجربة الأموية قلبا وقالبا ، سياسة وفكرا ، نظرية وسلوكا ، وبالتالي فإن الفشل الأموى يدعم من شرعيتهم فى مواجهة الجماهير المسلمة غير أن بعض خلفاء البيت الأموى الأكثر استقرارا رأوا عكس رأى المأمون وتراجعوا عن فرض المذهب بعد أن راح

الكثيرون ضحية هذا القهر والاضطهاد السياسي ونالت الحملة الشرسة من كبار العلماء وأهل الحديث الذين لا تزال آراؤهم مسموعة بين المسلمين حتى اليوم وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل .

على أن أهل الحديث وعامة المسلمين لم يكونوا وحدهم ضحية موجات التكفير الشرسة التى انطلقت من صفين مرورا بالدولتين الأموية والعباسية كما أسلفنا ، لكن جيلا كاملا من الفلاسفة ورموز التنوير فى التاريخ الإسلامى تعرض لتلك الموجة التكفيرية ذاتها ، ونال قسطا وافرا من الاضطهاد السياسي .

هذا الجيل من الفلاسفة تمثل قصصهم مفاجأة تاريخية بكل المقاييس ، إذ أننا لا نزال نفاخر بهم العالم حتى اليوم فيما لا يعرف كثير من المسلمين أن تلك القيادات الفكرية والفلسفية والأدبية التاريخية نالت من الاضطهاد ما لم ينله أحد من قبل ، وانقطعت بها سبل الحوار مع أبناء عصرها ، وهاجت عليهم عواصف التطرف الفكرى ورفض الحوار ولقى بعضهم مصرعه على أيدى السلاطين والخلفاء تحت ضغط العامة وضعاف النفوس من نظرائهم فى مجال الفكر والسياسة الذين يخشون الحوار ويميلون لحسم قضاياهم بالدم والنفى بالإبادة .

تلك القصص تمثل مأساة حقيقية تؤكد على خطورة فكرة التكفير فى التاريخ الإسلامى ، ورغم أننا قد نختلف كثيرا مع بعض أو كل ما طرحه هؤلاء الفلاسفة والمفكرون والمتصوفة ، بل نرى أن بعض آرائهم قد تخالف ما جاءت به شريعة الإسلام عند بعض منحنيات وتفاصيل الأفكار التى يطرحونها ، إلا أن القيمة الأساسية هنا ليست فى الخلاف أو الاتفاق ، لكنها تتعلق بكيفية إدارتنا نحن المسلمين لهذا الخلاف أو ذلك الاتفاق .

الفكرة هى كيف ندير خلافاتنا ، كيف نتناقش ، هل نتحاور بالعقل والحجة ونجعل من اللّه وظهور الحق غايتنا ؟! أم نتحاور بالقتل والاعدام والتكفير حفاظا

على ما نراه وحدنا أنه الحقيقة ؟! ويظل البعض منا يظن نفسه محتكرا للحقيقة وحده ، معلنا أن كل ما سواه هو الباطل بعينه وأن الآخرين الذين يختلفون معه فى الرأي مصيرهم الجحيم والعذاب فى الدنيا والآخرة .

وحين نفاجأ بأن هؤلاء الذين حكم عليهم بالتكفير والزندقة والخروج على شريعة اللّه هم قامات عظيمة فى تاريخ الإسلام ، وفلاسفة كبار تتدارس فى أعرق جامعات العالم أفكارهم حتى هذا اليوم الذى نعيش فيه .

وحين نرى كيف كانت الظروف السياسية التى عاش فيها هؤلاء الفلاسفة والمفكرون وكيف كانت المؤامرات تحاك من حولهم فإننا سندرك أن البعض كان يهدف من اضطهادهم شيئا آخر غير إظهار الحقيقة ، وسوف ندرك أيضا كما يقول بعض المؤرخين لتاريخ الفكر العربى أن بعض السلاطين والخلفاء قد نفذوا حكم الإعدام على بعض الفلاسفة وأصحاب الرأى لا لشيء إلا لكى يكسبوا رضا العامة من الناس .

إنه فصل آخر من فصول التكفير والسلطة

وقد اتهم بن مسرة بالإلحاد والزندقة من قبل فريق كبير من رموز هذا العهد وآمن بكفره وإلحاده كثير من عامة المسلمين ، وربما كان هروبه إلى الجبال واستقراره فيها نتيجة لهذا الاتهام بالإلحاد وخوفه على حياته من أن يبطش بها أحد الذين يؤمنون بإلحاده ، ولكن هذا لم يمنع من أن يكون لمدرسته الفكرية تأثير كبير على الفكر الصوفى الأندلسى .

○ ○ ○

الفصل الثالث

ضحايا وجُناه

لم يعد بيننا من يستمع .. صار البعض يحتكر الكلام دون رغبة فى أن ينصت .. صار البعض يحتكر الحقيقة المطلقة ، ولما كان البعض قد قام بتكفير صحابة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقد كان يسيرا على من خلفهم أن يستخدموا التكفير كما يحلو لهم .

هل هناك ما هو أكبر من تكفير صحابة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ؟!

هل هناك ما هو أكبر من العدوان على رجال حملوا دين اللّه فى قلوبهم وتحدوا به العالم ثم يأتى من بعد ذلك من يحكم عليهم بالخروج على هذا الدين ويكيل إلى خيرة الرجال فى الرعيل الأول من الإسلام كل الاتهامات التى لم توجه إلى أبى لهب وأبى جهل وأبى بن خلف ؟!

ليس هناك ما هو أخطر من ذلك .. وربما ما جاء بعد ذلك أقل تاثيرا وفجيعة لكن خطورته أنه يؤكد أن منهج التكفير قد امتد واتسع بصورة واسعة وشمل عشرات الوجوه ، وطال كل من يحمل فكرة جديدة ويطرحها حتى لو كان متشككا .

صحيح أن بعض الفلاسفة وأئمة علم الكلام فى التاريخ الإسلامى أطلقوا الكثير من الكلمات التى قد ننظر اليها على أنها لا تتفق مع جوهر الدين الحنيف ، لكن المأساة الحقيقية هى فى انقطاع الحوار حول تلك الأفكار وترك الفتنة تعم ، ومحاسبة صاحب الفكر بالقتل والحبس والتشريد والحكم بتكفيره وخروجه عن دين الإسلام الأمر الذى يسىء إلى الإسلام فى بعض من محطات رحلة الدعوة .

والغريب أن الفلاسفة المسلمين كانوا أكثر من تعرض لهذا النوع من التكفير على أيدى بعض الفقهاء ، وتجاوز الأمر حدود الفتوى المحدودة الأثر أو النقاش النخبوى

فى دائرة المثقفين وامتد ليشمل توقيع الجزاءات والعقوبات على كل من تسول له نفسه أن ينتهج هذا المنهج فى التكفير أو يعرض أفكاره التى تخالف بعض الفقهاء .

وحسب آراء بعض المؤرخين فإن الغيرة والأحقاد كانت قد حركت المؤامرات فى أوساط النخبة الثقافية فى مختلف العصور الإسلامية الأمر الذى دفع بعناصر النخب المختلفة إلى التسابق على كسب رضا الأمراء وتدبير المؤامرات المختلفة للايقاع بالخصوم عن طريق تلفيق الاتهامات والإساءة إلى الأفكار وتشويهها أو عدم فهم بعض الأفكار الأخرى واختلط ما هو فكري بما هو سياسي ، وكما استغلت النخبة الثقافية والفكرية السلطة فى تصفية الخصوم كانت السلطة فى المقابل تحصل على مكاسب سياسية عظيمة من جراء التعاون والتآمر لصالح هذا الفريق أو ذاك من تلك النخب .. وهكذا تعددت ضحايا التكفير .. وتعددت صوره وامتدت أشكاله حتى اليوم .

○ ○ ○

الكندى فيلسوف الإسلام الأول

هو أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندى أول فلاسفة الإسلام ويرجع نسبه إلى عرب بن قحطان من عرب الجنوب وكان أجداده ملوكا على « كندة » وكان أبوه اسحق بن الصباح أميرا على الكوفة فى زمن الرشيد وقد عاش الكندي فترة من حياته فى البصرة ثم انتقل منها إلى بغداد حيث أقبل على العلوم والمعارف لينهل من معينها وقد نقل عنه أنه من المؤمنين بالمذهب الاعتزالى ومن المشاركين فى حركة الترجمة والنقل الكبرى عن الفلسفة اليونانية وله ما يزيد على مائتين وثمان وثلاثين رسالة فلسفية كما يقول بعض المؤرخين .

وكان الكندى أول من مهد الطريق للفلسفة عند المسلمين فجمع أشتاتا من المعارف الفلسفية من بينها آراء لفيثاغورث وأخرى لأفلاطون وغيرها لأرسطو وقد اختلط ذلك كله بآراء لشراح من - أمثال الاسكندر الأروديسى وفوروفوريس .

والكندي يمثل الحلقة الوسطى بين علم الكلام الذى ظهر على أيدى الفرق والمذاهب المختلفة التى شهدها العصران الأموى والعباسى وبين نشأة الفلسفة الإسلامية إذ إنه كان معتزليا يدين بمذهب التأويل وإعلاء سلطة العقل وله مواقف كلامية معروفة فيما يختص بصفات اللّه تعالي .

وكان لأهل السنة موقف متشدد من الكندى حينما اجترأ على ما اتفق عليه جمهرة علماء السنة من تحريم الاشتغال بالفلسفة وعلوم الأقدمين بحجة أنها تورث الكفر وقد ثار بالفعل علماء أهل السنة فى وجه الكندى وقاومه نفر منهم وتجهموا عليه ولكن الكندى رغم كونه فيلسوفا يعلى من قيمة العقل والمنطق ويقبل بالحوار إلا إنه لم يتوان عن أن يذهب إلى حد تكفير من يحارب الفلسفة - فيقول :

« ويحق أن يتعري من الدين من عاند قنية علم الأشياء بحقائقها وسماها كفرا » .

وقد خاض الكندى صراعا مريرا مع بعض رموز وشيوخ أهل الحديث الذين كانوا يسمون الفلسفة ومقترفيها كفرا بينا ، وبادل الكندى هذه الحرب بهجوم آخر أكثر شراسة أكد على أنه هو أيضا يعتبر كل من يعاند الفلسفة كافرا وخارجًا عن الدين .

والمثير أن الكندى يعد أول فلاسفة الإسلام ، والمثير أيضا أن تبدأ معركة أول فلاسفة الإسلام بجدال وتراشق باتهامات التكفير بينه وبين عدد من علماء الحديث فى عصره على أن الظروف السياسية التى نشأ فيها الكندى والقوة والمنعة التى تمتع بها بفضل نسبه وعلو شأن أسرته فى شؤون الحياة العامة ربما منعا عنه الكثير من الاضطهاد ، لكن آخرين ممن جاءوا بعده ربما لم يكن لهم الفرصة نفسها .

○ ○ ○

ابن باجة

عاش ابن باجة فى عصر المرابطين فى بلاد المغرب العربي وكان عصر اضطهاد كبير للفكر وأصحابه وهو أبو بكر بن يحيى المعروف بابن الصائغ وابن باجة وقد ولد فى سرقسطة فى القرن الخامس الهجرى وقد كانت حياته مليئة بالأزمات إذ اضطر إلى الفرار من بلده إلى غرناطة بعد احتلال الفونس الأول لمسقط رأسه ثم غادر غرناطة إلى مراكش حيث صار وزيرا فى بلاط فاس وظل بها إلى حين وفاته .

وقد عرف ابن باجة بحبه للعزلة وتذوقه للموسيقى وهو بالفعل قد تأثر بالمعلم الثاني الفيلسوف « الفارابي » فى حياته وفى مذهبه .

ويلاحظ أن الفترة الأولى التى عاشها ابن باجة كانت شديدة الصعوبة حيث اضطرته أفكاره إلى الهجرة عبر بلاد مختلفة هربا من البطش والتنكيل خاصة أن هناك من بعض الفقهاء من تحالف مع حكام المرابطين ودفعهم لاضطهاد الفلاسفة وأصحاب الرأى باعتبار أن هذا الفكر خطر على الإسلام ، أو ربما على اعتبار أن أى عمل عقلى من شأنه أن يدفع العامة إلى التفكير فى شؤون الحياة العامة والسياسة مما قد يكون خطرا على استقرار الأنظمة السياسية القائمة فى ذلك الوقت ، ولذلك هرب ابن باجة حيث التمس بعض الأمن لدى حكام مدينة فاس .

○ ○ ○

السهروردى .. الفيلسوف المقتول

هو أبو الفتوح يحيى بن حبشي بن أميرك الملقب بشهاب الدين السهروردى وكان مولد السهروردى بين سنة ٥٤٥ و ٥٥٠ هجرية ببلدة سهروردة من أعمال نجران فى عراق العجم واتصل فى شبابه الأول باستاذه مجد الدين الجحيلي فى مراغة من أعالى أذربيجان حيث تلقى عنه أصول الحكمة والفقه ، كما تعلم أيضا على يد مجد الدين الجيلى وهو أستاذ فخر الرازي وكانت بينه وبين السهروردى مناظرات ومساجلات وتذكر المراجع أن السهروردى الشاب قرأ البصائر النصيرية فى المنطق لابن سهلان إسلاوي على الظهير الفارسى وكان ذلك فى مدينة أصفهان الإيرانية والتى اتصل فيها عن كثب بمذهب ابن سينا فترجم له رسالة الطير إلى الفارسية وكانت له اجتماعات بفخر الدين الماردينى ، كما يذكر ابن أبي أصيبعة أن السهروردى كان يفضل الإقامة بديار بكر واتصل هناك بأمير خربوط عماد الدين قرة أرسلان وأهدى إليه كتاب « الألواح العمادية » ويرجح بعض المؤرخين أن السهروردى أسس المدرسة الإشراقية فى بلاط هذا الأمير .

لكن الحياة لم تمض على ما يرام بالنسبة لهذا الفيلسوف الشاب وربما كانت أهم مراحل حياة شيخ الاشراق تلك التى قضاها فى حلب حيث اجتمع بفقهائها وعمالها فى عهد الملك الظاهر بن الناصر صلاح الدين الأيوبي ، وتجادل معهم فظهر عليهم وانتصر بفكره على أفكارهم وبان له فضل عظيم وعلم باهر وحسن موقعه من الملك الظاهر وقربه من سلاطين الدولة الأيوبية وأمرائها بهذا العلم الغزير وبآرائه العقلية الصائبة التى كان لها محل تقدير كبير فى صفوف السلطة السياسية فى ذلك الوقت .

وصار مكينا عند الظاهر نجل السلطان صلاح الدين الأيوبى مختصا به فازداد تشنيع الفقهاء والمتكلمين عليه وعملوا محاضر بكفره وخروجه عن الإسلام

والشريعة وسيروها إلى الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي ليضربوا هذا الفيلسوف من المنبع ويكسروا قربه من الملك الظاهر .

وبدأت فصول محنة حقيقية عاشها هذا الفيلسوف الشاب بسبب محضر التكفير الذى رفع إلى السلطان صلاح الدين الأيوبى ، فالسلطان من جهته استمع إلى شيوخ وعلماء الإسلام فى حلب واستمع إلى هؤلاء المتكلمة الذين كان السهروردى يظهر عليهم ويهزمهم فى النقاش والجدال العقلى وكانت المفاجأة . - حسب الروايات التاريخية عن هذا العهد - أن السلطان صلاح الدين الأيوبي قد استجاب لهؤلاء الفقهاء الذين دبروا هذا العمل لشيخ الإشراق وتم الحكم عليه بالإعدام ويجمع المؤرخون أنه أعدم فى قلعة حلب أو فى مصر أو ربما تركوه يتضور جوعا حتى مات فى سجنه .

ولكن العماد الاصفهاني المعاصر لصلاح الدين الأيوبى يورد القصة الكاملة لمقتل شيخ الإشراق ويحكيها بمزيد من التفاصيل التى تبين عمق الأزمة التى تعرض لها هذا الفيلسوف البارز فيقول: سنة ٥٨٨ هجرية وفيها قتل الفقيه شهاب السهروردى وتلميذه شمس الدين بقلعة حلب .

وكان فقهاء حلب قد اشتدت غيرتهم من هذا الرجل بصورة لم يتمكنوا من مقاومتها وقد تعصبوا عليه لما خلا الفقيهان ابنا جهيل .

ويذكر ابن خلكان أن هذين الشيخين هما مجد الدين وزين الدين فانهما قالا : هذا رجل فقيه ومناظرته فى القلعة ليست بحسن فلينزل لنا فى الجامع ويجتمع الفقهاء كلهم ويعقد له مجلس فى الخلاف ولكن لم ترجح لهم عليه حجة ، وأما على مستوى علم الأصول فما عرفوا أن يتكلموا معه فيه وقالوا له : أنت قلت فى تصانيفك - وهو الكتاب الذى حرره السهروردى - إن اللّه قادر على أن يخلق فينا نبيا وهذا مستحيل فقال لهم: لا يوجد حد لقدرته ، أليس القادر إذا أراد شيئا

لا يمتنع عليه ؟ فقالوا له : بلى .. فقال : اللّه قادر على كل شيء .. فقالوا إلا على خلق نبى فانه مستحيل قال : فهل يستحيل مطلقا أم لا ؟ فقالوا له : كفرت .

وهكذا نجح الرجلان فى أن يتصيدا الفيلسوف وأن يوهما العامة بأنه كفر لأنه قال إن اللّه قادر على خلق نبى لأنه قادر على كل شيء ونجح هؤلاء أيضا فى أن يحكموا الحبل حول رقبته بهذه المناقشة الغريبة رغم أنهم لم ينجحوا فى أن ينالوا منه فى الفقه أو فى علم الاصول .

وقد اختلفت الروايات فى طريقة قتله فمن قال بأنه صلب ، ومن قال بأنه خنق ، وأخيرا ذكر بعض المؤرخين أنه منع عن الطعام حتى تلف وكانت وفاته أو مقتله فى الخامس من رجب سنة ٥٨٧ هجرية بحلب على ما يذكر ابن أبى أصيبعة وابن خلكان فى الروايات التى أورداها عن تلك الفترة ، وحسب تفسير بعض المؤرخين فإن السلطان صلاح الدين الأيوبى ربما استجاب لمطالب فقهاء حلب وتعاطى ايجابيا مع مذكرة التكفير التى رفعت إليه نظرا لأنه كان منشغلا بشدة فى الحروب ضد الغزاة الصليبيين التى استغرقت كل وقت سلطان المسلمين ، وكان الهدف تهدئة الأجواء العامة فى البلاد وعدم إثارة غضب الفقهاء وأهل الحديث وإثارة الفتنة والقلاقل على المستوي الداخلى الأمر الذى قد يكسر العزائم المتأججة نحو القتال ، فضلا عن أن التعبئة العامة التى سادت جماهير المسلمين فى ذلك الوقت نحو الجهاد فى سبيل اللّه لم تكن تحتمل تضييع أي وقت فى الجدال والمناظرات وإثارة القضايا الفلسفية والفقهية والأصولية المختلف عليها .

ومذهب السهروردي يعتبر مذهبا إشراقيا فى جملته حمل فى جوانبه كل ما اشتملت عليه التيارات الفلسفية الإسلامية السابقة .

○ ○ ○

ابن مسرة

يعتبر ابن مسرة بمثابة الفرع المغربي لحركة الباطنية فى الفلسفة الإسلامية وقد ولد عام ٢٦٩ هجرية وكان أبوه عبد اللّه من المتصلين بحركتى الاعتزال والباطنية وقد توفى أثناء أدائه لفريضة الحج وكان ابن مسرة قد ناهز السابعة عشرة من عمره فاعتزل فى جبال قرطبة مع تلاميذه عاكفا على دراسة مذهب الأنبا « ذوقيلس » الباطنى ولكنه اضطر إلى الهرب إلى خارج الأندلس وزار مدينتى مكة والمدينة وهناك اغترف من ثقافة الشرق ثم عاد إلى موطنه فى المغرب العربى فى عهد عبد الرحمن الثالث .

ولكن ابن مسرة عاد إلى الاعتكاف فى جبال قرطبة وتوفى بها وحوله تلاميذه . .. ومن كتبه التى عرفت كتاب « التبصرة » الذى يتضمن مذهبه الباطنى ثم كتاب « الحروف » .

وقد اتهم ابن مسرة بالإلحاد والزندقة من قبل فريق كبير من رموز هذا العهد وآمن بكفره وإلحاده كثير من عامة المسلمين ، وربما كان هروبه إلى الجبال واستقراره فيها نتيجة لهذا الاتهام بالإلحاد وخوفه على حياته من أن يبطش بها أحد الذين يؤمنون بإلحاده ، ولكن هذا لم يمنع من أن يكون لمدرسته الفكرية تأثير كبير على الفكر الصوفى الأندلسى .

وقد قضى ابن مسرة معظم أيامه إما معتكفا فى صومعته بالجبال أو فارا من الأندلس حتى يسلم من موجات الاضطهاد التى كانت تلاحق كل مشتغل بالفكر الفلسفى أو بالأفكار الباطنية فى الأندلس ولهذا نجد أتباعه يؤلفون نظاما باطنيا سريا ويجعلون على رأسه إماما كما فعلت الباطنية فى المشرق ويعد إسماعيل بن عبداللّه الرعيني من أبرز أئمة هذه الجماعة فى أوائل القرن الخامس الهجرى .

○ ○ ○

ابن رشد

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد المولود فى قرطبة سنة ٥٢٠ هجرية ١١٢٦ ميلادية ، وكانت قرطبة فى ذلك العصر من أهم مراكز العلم والحضارة الإسلامية فى الأندلس . أما أبوه فهو القاسم أحمد « قاضى قرطبة » وكان جده أبو الوليد من ألمع فقهاء الأندلس وأكثرهم تضلعا وقد ولى منصب قاضى القضاة وعرفت له مباحث جليلة فى الفلسفة وفى الفقه وفى الشرعيات على وجه العموم.

نشأ ابن رشد إذن فى بيت علم ودين فأقبل منذ نعومة أظافره على ضروب المعرفة التى يموج بها العصر الذى عاش فيه وكان يحدوه شغف كبير للاستزادة ومتابعة القراءة والدرس ، وقد درس ابن رشد الفقه على مذهب الإمام مالك ثم عكف على دراسة الأدب « شعره ونثره » فأخذ منهما نصيبا كبيرا ولم يكد يفرغ من دراسته الأدبية حتى انصرف إلى الطب والرياضيات والحكمة وكان من بين أساتذته فى هذه العلوم ابن بشكوال وابن مسرة وأبو جعفر هارون .

وسمع به عبد المؤمن الموحدي الذى خلف ابن تومرت على الحكم فدعاه إلى مراكش واستعان به فى إنشاء المدارس ومعاهد العلم وتنظيمها ، وبعد هذه الفترة نجد أن ابن رشد يتصل بأبناء « زهر الأطباء » فتكون ثمرة هذا الاتصال كتاب « الكليات » وقد ألفه ابن رشد فى مباحث الطب النظري .

وقد عرف هذا الكتاب عند الأوروبيين فى القرون الوسطى باسم « colli get » وقد أكمل أبو مروان بن زهر الجزء العملى لهذا الكتاب فى كتاب أسماه « التيسير » يقال إن أبا مروان وضعه بإيعاز من ابن رشد لتكتمل به الموسوعة الطبية العربية .

وبعد ذلك يتصل ابن رشد بأبى يعقوب بن يوسف حوالى سنة ١١٦٩ ميلادية وهو الذى خلف أباه عبد المؤمن على دولة الموحدين فى مراكش وكان أبو يعقوب محبا للعلم والعلماء ميالا للفلسفة ومباحثها وكان وزيره ابن طفيل قد أشاد فى مجلسه بذكر ابن رشد ومكانته العلمية فاستدعاه الخليفة وأكرمه وجعله من خاصته وتحقق الخليفة من فضله وعلمه فقد لاحظ انصرافه إلى الدرس والمطالعة وابتعاده عن مجالس اللَّهو فعينه قاضيا فى إشبيلية عام ١١٦٩ ميلادية ثم عينه سنة ١١٧١ قاضيا فى قرطبة ثم استدعاه عام ١١٨٢ وعينه طبيبا خاصا له ثم لم يلبث أن عينه قاضيا لقضاة قرطبة .

وخلال هذه الفترة وأثناء صلته بأبى يعقوب عكف ابن رشد على تلخيص كتب أرسطو وتفسيرها وتوصل إلى تلخيصها وحذف ما بها من شوائب الافلاطونية المحدثة ويقال إن ذلك كان بفضل توجيه ابن طفيل له بعد أن شكا اليه الخليفة من غموض النصوص الأرسطية المترجمة إلى العربية .

وظل ابن رشد محتفظا بمكانته الممتازة لدي أبى يوسف الملقب بالمنصور والذى خلف أباه أبا يعقوب فى الحكم عام ١١٨٤ ولكن ارتفاع منزلة أبي الوليد «ابن رشد » لدى بيت الخلافة أثار الحسد والحقد عليه لدى الفقهاء فى هذه الدولة الإسلامية الأمر الذى دفعهم إلى توجيه تهمة الكفر والزندقة إلى الفيلسوف ابن رشد بعد كل هذا التاريخ الحافل بالعلم والمعرفة والإنجاز الطبى والفلسفى والتدرج فى سلك القضاء الإسلامى على فترات مختلفة وقد وجهت إليه تهمة هؤلاء الفقهاء عام ١١٩٥ .

وقد اختلفت الروايات التاريخية فى طريقة تكفيره إلا أنها ترجع فى مجملها إلى

اشتهاره بالتبحر فى علوم الأوائل من الفلاسفة واجتمع له فقهاء قرطبة وقضاتها واستجوبوه فى تحقيق مهيب ثم عملوا محضرا بكفره وزندقته واتهموا تعاليمه بأنها كفر محض ، وصرحوا باللعنة على من يقرؤها فأمر الخليفة بإحراق كتبه علانية ومنع تداولها وسري هذا الأمر على كتب الفلاسفة جميعا فأحرقت جميع تلك الكتب المترجمة والمشروحة عبرفلاسفة وعلماء عرب ما عدا كتب الطب والحساب ومبادئ علم الهيئة .

وقد كان من الممكن أن تودى المحنة بحياة ابن رشد نهائيا وأن يتطور الأمر إلى الحكم بإعدامه باعتباره كافرا وزنديقا وخارجا عن الدين وفق وجهة نظر محاكميه لولا بقية تقدير لهذا الفيلسوف فى نفس الخليفة الذى أمر بالاكتفاء بنفيه إلى قرية يهودية تقع إلى الجنوب الشرقي من قرطبة وتسمى « ايسانة » .

ويفسر بعض المؤرخين الانقلاب الحادث فى بيت الخلافة من التعامل مع الفيلسوف ابن رشد بأنه لم يكن بسبب غضب حقيقى من السلطة السياسية عليه ، لكن كان هناك هدف سياسى آخر أراد بيت الخلافة تحقيقه عبر استجابتهم لهذه الاحداث والتطورات المفاجئة .. فحقيقة الأمر أن الحاكم أبا يوسف كان فى حرب الفونس التاسع ملك قشتالة وأحس بحاجته إلى استجلاب رضا الشعب ومؤازرته له فى هذه الحرب الضروس وكانت للفقهاء سلطة كبيرة فى جموع الناس وقدرة على تعبئة الجماهير فى هذه الحرب لمساندة الحاكم فى تلك الفترة فاستجاب أبو يوسف لدعوى هؤلاء الفقهاء ضد ابن رشد وأنزل العقاب بهذا الفيلسوف والحكيم العربى الكبير وحكم عليه بالكفر والنفى خارج البلاد ، وقد كان هذا هو السبب الحقيقي لنكبة ابن رشد .

وظروف المحنة هنا تكاد تتطابق مع ظروف المحنة التى أودت بحياة السهروردى الشاب فى المشرق الذى تألب عليه الفقهاء واستجاب لهم صلاح الدين أثناء الحروب الصليبية ولكن الخليفة فى حالة ابن رشد ما لبث أن هدأت الأحوال فأخلى سراح ابن رشد وأباح دراسة الفلسفة مرة أخرى ويقال إن جماعة من وجهاء اشبيلية توسطوا لدى الخليفة للإفراج عن الفيلسوف وقام الخليفة بالفعل بالإفراج عنه ودعاه إلى بلاطه فى مراكش حيث توفى سنة ١١٩٨ هجرية وعمره اثنتان وسبعون سنة ودفن فى مراكش ثم نقل جثمانه إلى قرطبة حيث دفن هناك إلى جوار أجداده أصحاب التاريخ الحافل بالعلم والمعرفة فى كافة مباحث العلوم الإسلامية .

○ ○ ○

الحلاج .. الصوفى الثائر

لم يكن الفلاسفة وحدهم هم الذين قد تعرضوا لآلة التكفير العملاقة خلفا للصحابة والتابعين على مدار التاريخ الإسلامى لكن هذه الآلة الحادة فعلت فعلها فى تاريخ الأمة الإسلامية وأتت على كثير من الرموز الفكرية والفلسفية والأدبية والصوفية أيضا .

الحلاج فصل جديد من هذه المأساة وإن كنا نعترف أن كثيرا مما أتي به الحلاج فى إنتاجه الصوفى والفكرى قد يتعارض تماما مع ما يؤمن به جمهور المسلمين اليوم ، إلا أن الحكمة لم تكن فى فعل الاختلاف كما أسلفنا القول بقدر ما كانت فى إدارة هذا الخلاف بما يرسخ فكرة التكفير بصورة واسعة تستخدم أحيانا فى مواضعها الصحيحة فى حين تستخدم كثيرا فى مواضعها غير الصحيحة .

وقد ولد الحلاج « الحسين بن منصور » فى عام ٢٤٤ هجرية ، ٨٥٧ ميلادية وتوفى سنة ٣٠٩ هجرية ٩٢٢ ميلادية ومسقط رأسه الطور فى شمال شرق البيضاء فى مقاطعة فارس بإيران وكانت البيضاء مكانا أوغل فى العروبة وفيها ولد النحوى الكبير « سيبويه » ولقد كانت معسكرا صغيرا على الطريق الحربى الممتد من البصرة إلى خراسان .

وأبو الحلاج كان قد ارتحل للعمل من هذه المنطقة الفارسية إلى منطقة عربية على نهر دجلة « مدينة واسط » وفى هذه المدينة نسى الطفل فارسيته تماما وكانت « واسط » معظمها من أهل السنة وعلى مذهب الإمام ابن حنبل مع وجود بعض الأقليات الشيعية .

ومنذ نعومة أظافره تذوق الحلاج حلاوة الإيمان وحقائقه وفى العشرين من عمره ارتحل إلى البصرة حيث كون الموالى الحارثية فى البيضاء تحالفا مع بني الملهب الأزديين وذلك ليتلقى « خرقة الصوفية » من يد عمرو المكى وتزوج هناك بأم

الحسين بنت أبى يعقوب الأقطع البصرى ولم يتزوج بغيرها ونظرا لبعض المشكلات السياسية فى هذه المنطقة ارتحل إلى مكة لأداء فريضة الحج وبدأ فى الإبحار فى عالم الصوفية ولما عاد من مكة إلى الأهواز بدأ الوعظ فى الناس مما أثار حفيظة الصوفية الذين كانوا يسعون إلى الانفراد بنعمة العبارات الشوقية والإلهية ويغلقون على أنفسهم باب حجرة الحضرة الإلهية .

وأدى هذا السخط من الصوفيين عليه إلى أن ينبذ خرقة الصوفية حتى يتكلم بحرية مع أبناء الدنيا وبخاصة مع الكتاب ورجال الأعمال وعامة جمهور المثقفين فى ذلك العصر واتهمه الساخطون عليه بالأعمال السحرية والاتصال بالجان الأمر الذى أضر به كثيرا .

وارتحل الحلاج إلى خراسان شأنه شأن كثير من البصريين واستمر يدعو ويعظ فى الجاليات العربية فى شرق إيران وبصفة خاصة منطقة « طالقان » وهو يبث دعوته فى المدن ويقيم على الحدود ويرابط مع المرابطين فى الثغور وبعد خمس سنوات يعود إلى الأهواز ثم إلى بغداد مع جمع من أعيان الأهواز .

فى هذه الأثناء كان ثمة فقيه سنى ظاهرى هو محمد بن داود وكان أيضا شاعرا وكاتبا ولم يستطع هذا الفقيه أن يحتمل ادعاء الحلاج الاتحاد الصوفى باللّه فاستغل مركزه قاضيا فى محكمة كبير القضاة فداد ورفع أمر الحلاج إلى المحكمة طالبا بقتله إن اقتراحه هذا قد وقع عليه آخرون قد اصطدم بمعارضة قاض آخر شافعى هو « ابن سريج » الذى قال إن مثل هذا الالهام الصوفى لا يدخل فى اختصاص المحكمة الشرعية الأمر الذى أدى إلى إنقاذ الحلاج من هذه المحنة فى بداية الأمر ، لكن الأمور لم تقف عند هذا الحد !! .

وفى سنة ٣٠١ هجرية جاء وزير جديد هو ابن عيسى القنائي وكان أحد أعضاء وزارته وهو حمد القنائى ابن عمه حلاجيا صريحا أى من اتباع الحلاج فأفسد

الكثير من الاضطهادات ضد الحلاج مؤقتا ومنع مطاردة الحلاج ومنع كبير القضاة من النظر فى القضية أخذا بالفتوى الشرعية التى أصدرها ابن سريج وأطلق سراح تلامذة الحلاج .

وكل ما استطاع خصوم الحلاج الظفر به هو عرضه مصلوبا ثلاثة أيام بحجة كاذبة هى أنه أبرز أنصار القرامطة وأحد أهم دعاتهم وهى حجة تخيلها مدير الشرطة مؤنس الفحل كيدا للوزير الحلاجى نفسه ووفق هذه الخطة وحسب هذا الاتهام السياسى الخطير فى ذلك الوقت بدأت رحلة العذاب فى حياة الحلاج فتم إلقاء القبض عليه بتهمة التعاون مع القرامطة ثم حبس فى دار السلطان ولكن سمح له بأن يعظ المسجونين وبالمثول فى حضرة الخليفة كانت المفاجأة أن الحلاج قام بشفاء الخليفة فى نهاية سنة ٣٠٣ هجريا من أزمة حمى فأثار هذا حسد المعتزلة فروجوا أن الحلاج دجال ويعمل بالشعوذة ويعتمد على حيل سحرية .

ولما كانت الازمة المالية عام ٩١٩ ميلادية ٣٠٦ هجرية تشكلت وزارة ائتلافية جديدة وقاد فيها الوزير حامد معركة سياسية ضد الوزراء الذين يساندون الحلاج وأشعل من جديد قضية الحلاج وتآمر مع القاضى المالكى أبى عمر الحمادى وهو معروف بتملقه لسلطان القائمين بالأمر فأصدر حكما بإعدام الحلاج بعدما اتهموه بأنه يدعو إلى الاستغناء عن الحج ليشبهوه بالقرامطة الثائرين الذى دعوا إلى هدم الكعبة .

وقد رفض القاضى الحنفى بن بهلول هذه التهمة التى تم إلصاقها بالحلاج ولكن مساعده الثاني أبا الحسين الأشنابى – وهو رجل متهم الأخلاق – قبل مساعدة أبى عمر فى هذا الاتجاه وكانوا قد زعموا أنهم وجدوا للحلاج كتابا يقول فيه : « إن الإنسان إذا عجز عن الحج فليعمد إلى غرفة من بيته فيطهرها ويطيبها ويطوف بها ويكون كمن حج البيت » . وهكذا أحكمت التهمة على هذا الصوفى الثائر بعد أن بذل خصومه جهدا كبيرا للايقاع به طوال سنوات وفى باب خرسان جىء

بالحلاج وبحضرة مجلس الشرطة وأمام جمع غفير من الناس وضرب ألف سوط وقطعت يداه ورجلاه وصلب وهو لا يزال حيا ولم يأت أمر الخليفة المعتاد بالاجهاز عليه إلا عند المساء فتم تأجيل الإعدام إلى صبيحة اليوم الثاني فى شهر مارس عام ٩٢٢ ميلادية .

وهكذا ظل التكفير فكرة ثابتة تهيمن على مختلف العصور الإسلامية يروح ضحيتها فى السر والعلن عشرات من المسلمين بعضهم يقول : « إن اللّه واحد لا شريك له وإن محمدا رسول اللّه » .

وإن كنا لا يمكن أن ننحاز إلى أي شخص - أي من كان - يتعدى على مقدسات الإسلام أو ينال من حرمة الدين أو يكذب الأمور المعلومة من الدين بالضرورة وإن كنا ندين أية محاولة فى الماضى أو فى الحاضر يمكن أن تكون قد استهدفت دين الإسلام ونبيه وتعاليمه أو جوهر العقيدة التوحيدية الحنيفية التى أوصي بها القرآن الكريم فإننا فى الوقت نفسه نرى أن كثيرا من حوادث التكفير السابقة لم يكن الدين هو الهم الأول للذين يزعمون أنهم يدافعون عن دين اللّه وكان الغطاء السياسى للتكفير أعظم قوة وأبعد تأثيرا من الغطاء الدينى أو الفقهى أو الأصولى لأن الخلافات لو استقرت عند هذه المباحث الفقهية والفكرية والأصولية لما كفر أحد ولتحاور الناس فى سلام ليظهر الحق ويزهق الباطل وفق القواعد المتفق عليها للخلاف فى الإسلام وفى إطار سماحة الدين الذى جاء ليهدى الناس إلى الحق .. وليس ليلقى بالمخالفين إلى الجحيم !! وقد كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أكثر حلما وصبرا على المنافقين فى مكة والمدينة ولم يصدر حكما بالإعدام على أحد من المنافقين المشهود لهم بالنفاق إلا حينما كان هؤلاء يشكلون خطرا جسيما حقيقيا على أمن الدولة الإسلامية الناهضة - فى ذلك الوقت - والتى كان

أعداؤها يحيطون بها من كل جانب .

وإن كنا نري – من وجهة نظرنا – ضرورة أن يكون الحوار هو العنصر الأول فاننا ندعو علماء المسلمين وفقاءهم اليوم إلى أن يتدارسوا هذا التاريخ ويخضعوه للقراءة النقدية الجادة حتى نتبين الصواب من الخطأ وحتى نتبين صواب مواقفنا ورؤانا – نحن أيضا – إن كنا على صواب فى هذه الدعوة التى نطلقها للحوار أم أن هناك فى شريعة اللّه ما ينهانا عن ذلك وينتصر لهذا السلوك الذى سبقنا إليه السلف الذين نروى هذا الجانب الخفى من سيرتهم عبر التاريخ الإسلامى .

ولعنا هنا حين ندعو إلى تحديد مفهوم الكفر والتكفير ووضع ضوابط معينة لهذا الاتهام المرعب حتى لا يسيء البعض استخدامه عن قصد وسوء نية أو عن جهل وقلة علم وبصيرة فإننا لا نبتعد كثيرا عن مصلحة الإسلام والمسلمين فى هذا العصر .

فمن ناحية تؤدى هذه الضوابط إلى الحفاظ على صورة دعوة الإسلام ومن ناحية أخري تؤدي إلى الحفاظ على المسلمين وحدة متماسكة لا يكفر بعضها بعضا ويحارب بعضها بعضا .

وربما ما يجرى على ساحة العالم الإسلامى منذ منتصف السبعينيات فى القرن الفائت وظهور حركة التكفير تحت لواء النهضة الأصولية الإسلامية يدفعنا أكثر إلى التشديد على تلك الدعوة بعد ما عانته الأمة الإسلامية من جراء انتشار أفكار التكفير وشيوع استخدامها بين شباب جيل جديد من الحركة الإسلامية فى بلدان العالمين العربى والإسلامى .

وإن كنا ننتقل لقراءة هذا الملف الساخن فى الصفحات المقبلة فإننا نشدد على أن دعوتنا تلك لا تهدف إلى تمييع قواعد الدين أو التساهل مع هؤلاء الذين يحاربون دين الإسلام ويعمدون إلى التشكيك فى جوهره من الداخل فيما يوهمون العامة أنهم مسلمون .

ولكننا نقول إن الحلال بين والحرام بين والاسلام بين والكفر بين أيضا لكن هذه المهمة فى التكفير أو منح صكوك الإسلام أو الكفر لا ينبغى أن تكون بين يدى العامة كما لا ينبغي للعامة من الناس أن يطبقوا نتائج هذا التكفير بأنفسهم كتنفيذ أحكام القتل أو استحلال الأموال على غرار ما فعلت بعض تيارات التكفير التى شهدها العالم العربى منذ منتصف القرن العشرين وما بعده .

الهدف ليس الاعتداء على قواعد الإسلام الحاسمة والعادلة ولكن الهدف هو ضبط أدوات الخلاف وضبط جهة إصدار هذا النوع الخطير من الأحكام الفقهية حتى لا تسود الفتنة بين المسلمين وتتفتت وحدة الأمة أو يحكم على بعض أبناء الإسلام بالكفر فيما هم يؤمنون باللّه ويشهدون بأن محمدا عبده ورسوله .

السطور القادمة تكشف هذا الجانب الخطير وتحذر من القراءات المختلفة للآيات والأحاديث والتفسيرات والتأويلات المتعددة للمتشابه من القرآن الكريم أو من الأحاديث النبوية .

إنها ليست دعوة لمحاربة هذا التمييز المهم بين الإسلام والكفر ولكنها دعوة لحماية الإسلام من أن تنكسر شوكته عبر الخلافات الداخلية والصراعات الفكرية والفقهية خاصة أن أيا منا لا يتولي وحده احتكار الحقيقة أو حماية الدين بل إن اللّه تعالى وحده هو الذى تولى الدفاع عن هذا الدين وحمايته من قبل ومن بعد .

○ ○ ○

الفصل الرابع

حاكمية وجاهلية

راحت الافكار تنمو .. وغدا القتل باسم اللّه شعار الكثير من الحركات العربية والإسلامية .. وحملت الآيات كثيرا من التفسيرات وجاءت الأحاديث والأسانيد من كل حدب وصوب تؤسس حسب قراءات خاصة لموجة جديدة من العنف وتيار جديد من التكفير

هكذا كان التاريخ السياسي والفكرى فى الإسلام غارقا فى هذه المجادلات العنيفة حول التكفير ، كان التكفير سلاحا للتعبير عن الكثير من البطش وكان بعض الذين يدمنون التجارة باسم الدين يجيدون فنون القتل باسم اللّه ظلما وعدوانا كما أدت هذه الموجة العارمة إلى قيام البعض بخلط الحق بالباطل فظهر جيل من الذين يحاربون الدين ويخرجون على تعاليمه رافضين لمبادئه وأحكامه أو محرفين لقواعده واختفى هذا الفريق بستائر من الرياء والنفاق حينا وأعلن بعضهم الإلحاد علنا أحيانا أخرى وهاجموا خصومهم الذين انتقدوا أفكارهم الخارجة عن الدين واتهموهم بأنهم يدمنون تكفير الناس بالباطل .

هذا الفريق من الذين أعلنوا الإلحاد فعلا استغل الابتذال الذى تعرض له مصطلح التكفير وراح ينتقد مهاجميه ويسخر من الذين يكفرون الناس وهكذا ضاع الحق وصارت الفوضى الفكرية شعارا لكثير من الناس .

لكن بين فوضى الملحدين الجدد فى الإسلام وفوضى حاملى شعار التكفير من ناحية أخرى كان الصراع الدائم على الصعيد الفكري حتى تجسد فى نهاية القرن العشرين فى الصراع الفكرى بين العلمانية والإسلام .. بين الذين يطالبون بحكم شريعة اللّه فى الأرض فيما تلصق بهم التكفير وبين الذين يريدون العلمانية وفصل الدين عن الدولة وتلحق بهم تهمة الإلحاد ورفض الأديان .

لكن الظاهرة الأكثر خطورة هى أن فكرة التكفير تطورت بصورة واسعة وبطرق متعددة ومختلفة على امتداد التاريخ الإسلامي ، - وفى نهاية القرن العشرين صارت تلك الفكرة عنوانا لحالة من الغضب الاجتماعى والسخط السياسى الذى تصبه بعض التيارات السياسية على الحكام والزعماء ، وصار التكفير هو الشعار الذى يلصق بالحركات الإسلامية المعاصرة .

ولعل الفكرة كانت قد نشأت - على استحياء - منذ مطلع القرن العشرين خاصة بعد سقوط الخلافة الإسلامية للدولة العثمانية ورغم المساوئ العديدة للحكم العثماني وما جرى على أيدي الأتراك فى العديد من البلدان الإسلامية التى كانت خاضعة لقيادتهم إلا أن الكثير من التيارات السلفية التى هيمنت على الثقافة الإسلامية مطلع القرن العشرين اعتبرت أن سقوط الخلافة حدث عظيم فى التاريخ الإسلامى وأكدت أن علمانية مصطفى كمال أتاتورك الذى سقطت على يديه الخلافة العثمانية هى السبب وراء انهيار الواقع الإسلامى وتمثل عدوانا كبيرا على الدين الإسلامى وانكارا لمبدأ دينى وهو ضرورة وجود خليفة للمسلمين يحكم بين الناس ويدين له المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها بالولاء والطاعة .

وتحت طغيان صدمة سقوط الخلافة العثمانية نسى المتشددون من المسلمين حالة الضعف القاسية للأتراك وأعمال السلب والنهب للجنود العثمانيين والفساد الذى أشاعوه فى الولايات ونسوا أيضا أن هذه الخلافة جرى فى عهدها احتلال مصر من قبل الإنجليز عام ١٨٨٢م واحتلال شمال أفريقيا والشام وجميع الولايات العربية التى كانت خاضعة لحكم السلطان العثمانى ونسوا أيضا المؤامرة الكبيرة التى جرت على المشروع النهضوي المصرى فى عهد محمد على وتورط بعض القادة العثمانيين فى هذه الحرب على مشروع محمد على .

كان كل ما يهم السلفيين – فى ذلك الوقت – ليس « ما الذى فعلته الخلافة ؟ » ولكن أن يحافظوا على الخلافة فى حد ذاتها أيا كانت حتى ولو طغت وظلمت وأذاقت الشعوب الويلات والمصائب .

ومنذ هذا التاريخ بدأت بعض الجماعات تعمل من أجل استعادة الخلافة الإسلامية واعتبرت أن عودتها هى بمثابة انتصار كبير للمسلمين ورد للثأر من قوي الاستعمار الغربي التى احتلت الأراضي الإسلامية وهتكت الأعراض واغتصبت أرض فلسطين لتقدمها على طبق من ذهب للاحتلال الاستيطانى الصهيونى .

ولأن الاستعمار كان –ولا يزال – جاثما على صدر الكثير من العواصم العربية والإسلامية لم تستطع تلك القوى أن تعبر عن نفسهابصورة متطرفة لكنها قدمت نفسها ضمن حركات التحرر الوطنية وناضلت ضد الاستعمار الذى يحتل الأرض كما حدث مع جماعة الإخوان المسلمين فى مصر خلال سنوات الاستعمار البريطاني .

ولكن ما إن رحل الإستعمار – بغير رجعة – حتى بدأت تلك الأفكار تتخذ وضعها الطبيعى فى الوجدان فى العقول وتعبر عن نفسها بطرق وأشكال مختلفة وراحت الفجوة تتسع بين السلطات الوطنية التى تولت الحكم فى بلدانها بعد رحيل الاستعمار وبين الحركات الإسلامية الجديدة التى رأت فى نفسها البديل الذى ينبغي أن يرث الاستعمار فى حكم البلاد واعتبرت هذه الحركات أن القوى الوطنية التى شاركت فى عمليات التحرير لا تختلف عن كمال أتاتورك وتدعو للعلمانية وتكره حكم الدين وتطبيق شريعة اللّه فى الأرض .

هذا بالضبط ما جرى فى مصر والجزائر واليمن وسورية وتونس وغيرها من العواصم العربية التى بدأت تشهد موجة مشتعلة من تيار « القتل باسم اللّه » وصار التكفير موجة غاضبة تجتاح عواصم عربية وإسلامية متعددة وصار فقه التكفير

يجتاح الشوارع والطرقات ويقتل الأبرياء فى كل مكان .

ففى فجر ثورة ٢٣ يوليو كانت مفاجأة كبيرة بين الشعب المصرى أن يتعرض الرئيس جمال عبد الناصر لمحاولة اغتيال فى ميدان المنشية بالإسكندرية على يد شاب من جماعة الإخوان المسلمين ومن هذه الجماعة نفسها خرج التنظيم السري للإخوان الذى كان المسؤول الأول عن الكثير من حوادث الاغتيالات التى حدثت فى مصر تحت شعار أن أصحابها كفار ويعادون اللّه ورسوله ومن هذا التنظيم أيضا خرج سيد قطب صاحب أخطر الكتب التى أسست لفكرة تمييز المؤمنين عن الكافرين والتنظير لفكرة العصبة المؤمنة مقابل العصبة الكافرة وهى الفكرة التى التقطتها فيما بعد جماعات الإسلام السياسى فى مصر وراحت تبنى عليها جملة من الأفكار التى دشنت لحركة واسعة من العنف المسلح الذى لا يعرف الحدود وبـ « اسم اللّه » الذى استخدمته تلك الجماعات دون سلطان أو مبدأ راسخ راحوا يقتلون الناس .

هل كان سيد قطب يدعو إلى التكفير حقا بكلامه الذى حمله كتابه المهم « معالم على الطريق » ثم بالأطروحات والتفسيرات التى أوردها بعد ذلك فى موسوعته « فى ظلال القرآن » أم أن سيد قطب لم يكن يقصد التدشين لكل التيارات التكفيرية التى جاءت بعد ذلك ؟

بصرف النظر عن الإجابة فإن ما جاء به سيد قطب صار أحد المراجع النظرية المهمة لفكرة التكفير فى العصر الحديث فسيد قطب أسس لنظرية أن المؤمن هو الأعلى ... الأعلى سندا ومصدرا وهذا كلام حق لا جدال فيه لكن ما جرى هو إعادة لتفسير فكرة المؤمن وفكرة الكافر بطريقة أشعلت نيرانا لم تتوقف حتى يومنا هذا .

○ ○ ○

الحاكمية

العنصر الأول فى الفكر الجديد هو الحاكمية التى صاغت الأساس النظرى للشكل الجديد للإسلام فى القرن العشرين فبعد أن كان الحكام هم الذين يصدرون أحكام الكفر على البشر عاد التاريخ مرة أخرى لنفس الصورة التى كان عليها الخوارج الذين تجاسر بعض منهم بتكفير على بن أبى طالب وأصحابه وبصرف النظر عن الفارق الواضح فى هذا المثل والقياس عليه بما حدث فى القرن العشرين إلا أن التكفير صار يتخذ صورة تصاعدية من القاعدة إلى القمة ومن الشارع إلى قصور الحكم .

ومفهوم الحاكمية يدمج بصورة مطلقة بين الإسلام وبين الحكم بشريعة اللّه حيث تصبح الحياة تطبيقا للإسلام ، ومبدأ الحاكمية يصبح هو العقيدة وهو الدين وليس من ورائه من هذا الدين كله إلا التطبيقات والتعريفات .

ومفهوم الحاكمية أسس له بطلاقة سيد قطب فى كتابه « معالم على الطريق » ودعا الكتاب إلى تحرر الإنسان المسلم من عبودية البشر ، وعبودية البشر وفق هذا التصور هى فى شكل الحكم الذى تتبعه الأنظمة الحالية فى العالم التى تؤسس قوانين وضعية ما أنزل اللّه بها من سلطان -حسب التصور القطبى- ويدعو هذا المبدأ إلى ما يسميه « حاكمية اللّه » من خلال أحكام القرآن والسنة النبوية وأحكام وسنن الخلفاء الراشدين المهديين الذين خلفوا النبى صلى اللّه عليه وسلم على الخلافة والحكم فى دولة الإسلام التى أسسها النبى صلى اللّه عليه وسلم فى المدينة وامتدت لتشمل إمبراطوريات واسعة على الأرض شرقا وغربا.

والحاكمية التى دعا اليها قطب تهدف أولا إلى إزالة حاكمية البشر وأن تكون

العبودية كلها لله بأن يكون اللَّه هو المشرع الوحيد وليس هناك حاكم أو سلطان على الأرض إلا اللَّه وبالتالى يعد هذا المنهج إدانة لفكرة الديمقراطية ولشكل النظم السياسية المتعارف عليها فى القرن العشرين سواء فى العالم العربى أو الإسلامى أو فى العالم اجمع .

ومن الحاكمية إلى الجاهلية حيث اعتبر قطب كل الأنظمة التى تحكم بغير ما أنزل اللَّه أنظمة جاهلية وبالتالى اعتبر العالم الذى لا يوجد فيه نظام واحد يحكم باسم شريعة اللَّه نظاما جاهليا وأن المجتمعات التى يعيش فيها الناس اليوم هى مجتمعات جاهلية تتبع طريق الضلال وتغرق فى طريق ليس لله فيه من شيء – حسب أفكار سيد قطب – .

والنتيجة المقصودة هى أن الإسلام متوقف تماما عن العمل وعن الوجود وصارت المجتمعات الإسلامية تعيش حالة شبيهة بالجاهلية الأولى التى سادت فى جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام بل إن قطب يعتبر أن الجاهلية الحديثة أشد قسوة وشراسة من جاهلية العرب قبل الإسلام مشيرًا إلى أن الجاهلية الماضية لم يكن فيها كل هذا القدر من التبجح والشرك ولم يكن فيها من البشر من يدعون أنهم يملكون حق التشريع وينسبون الشرائع إلى أنفسهم على الطريقة التى تجرى الآن فى جاهلية القرن العشرين .

وحسب تصور العديد من المفكرين فإنه من الناحية العملية تفضى هذه الفكرة إلى تكفير النظام والمجتمع القائمين فى المجتمعات المسماة بالإسلامية ووصف هذه الأنظمة بأنها لا تدين بالطاعة لله ولا تعطى اللَّه حق قدره ولا تطبق شريعة اللَّه فى الأرض وبالتالى تنطبق عليها الآية : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

اذا كانت الأنظمة كافرة والمجتمعات جاهلية – على حد وصف السيد قطب – فما هو الحل من وجهة نظر هذه الفكرة البارزة صاحبة التأثير الأوسع على الحركات الإسلامية الراديكالية فى القرن العشرين ؟

الحل هو فى العصبة المؤمنة التى يجب عليها أن تجد الحل السياسي لإنقاذ الإسلام من هذه الغربة التى يعيش فيها ، وإعلاء كلمة اللّه مجددًا على الأرض والتخلص من هذه الأنظمة « الكافرة » التى تعيش على سطح الكرة الأرضية وتحكم الناس بمنهج غير منهج اللّه وبشريعة غير شريعة الإسلام .

والحل هو أن تتوحد العصبة المؤمنة مرة أخرى كما حدث للنبى صلى اللّه عليه وسلم فى حربه ضد الجاهلية القديمة فى جزيرة العرب حيث جمع العصبة المؤمنة الأولى وأحسن تربيتها وتنشئتها على تعاليم اللّه ثم راح يؤسس بها للدولة الإسلامية الأولى فى المدينة المنورة وراح يواجه بقوات الإسلام جنود الكفر وأساطين الجاهلية الأولى حتى انتصر عليهم وأعلى كلمة اللّه .

وهذه العصبة المؤمنة عليها أن تتربى – من وجهة نظر قطب – على أحكام الإسلام الصحيحة وعلى مبادئ الشريعة الإسلامية وتؤمن إيمانا جازما بأن الجاهلية هى التى تسيطر على العالم اليوم وأن الإسلام لا يحكم وأن الأنظمة التى تحكم فى البلدان الإسلامية هى أنظمة بعيدة عن شريعة اللّه ويجب أن تواجهها هذه العصبة المؤمنة – التى يدعو اليها قطب – حتى يعود الإسلام إلى قوته وحتى تتحقق حاكمية اللّه على الأرض وحتى يتم القضاء على جاهلية القرن العشرين .

ولعل هذه الدعوة تمثل لدى الكثير من مؤرخي الحركات الإسلامية الراديكالية بداية الدعوة لإنشاء التنظيم المسلح الذى يؤمن بأفكار الجاهلية والحاكمية والعصبة المؤمنة ويجب على هذا التنظيم بعد ذلك أن يبدأ فى العمل ويواجه أعداء اللّه من

الكفار الذين يحكمون بغير ما أنزل اللّه ، ويطبق شريعة اللّه فى الأرض .

وبدأت رياح تيارات التكفير الشعبية تتحرك مجددا ورغم أن قطب أرسى معالم نظرية سياسية واسعة النطاق إلا أن الشكل الفقهى بدأ يلعب دورا كبيرًا حيث بدأت تنظيرات فكرة الجاهلية تتعدد بصور مختلفة وصار مصطلح الجاهلية يعنى أن الناس يعيشون فى مجتمعات كافرة وتراوحت الأفكار بين من يري أن المجتمعات والأنظمة جميعها كافرة وظهر فى المقابل من يحكم بالتكفير على الأنظمة السياسية ويكتفى بوصف المجتمعات بأنها مجتمعات جاهلية لكن أهلها مسلمون ثم ظهر من يقول بالتوقف عند كل شخص بعينه فلا يحكم على أحد بالإسلام أو بالكفر إلا بسؤاله إذا كان يؤمن بحاكمية اللّه أم لا ؟ ثم ظهر جيل جديد من الذين يكفرون المؤمنين بالمعصية ثم ظهر جيل يكفر جميع المسلمين بلا عناء أو مشقة ويستحل دماءهم وأموالهم ونساءهم ويقتل ويذبح زاعمًا - دون وجه حق - أنه يقتل باسم اللّه وثارت موجة من القتل واشتعلت نيران جديدة وبدأ سلم العنف يتصاعد ويعلو وسالت دماء زكية طاهرة كثيرة وسقط زعماء وبسطاء ساسة وجماهير .

○ ○ ○

الفصل الخامس

مواسم القتل

مرة أخرى تتحول الأفكار إلى خناجر وتتحول المشاعر والآراء إلى أسلحة وقنابل ومقصلة للقتل وحبل للإعدام .. وانطلقت موجة الدماء تأكل فى طريقها كل شئ ، وكان الضحية مرة أخري هو الفكر الإسلامى الصحيح

كان الضحية هو الحق الذى تنافس الجميع على ادعاء امتلاكه لكن كان اللّه وحده هو الذى يعلم الحقيقة .

فى منتصف عام ١٩٦٧ أعلنت مجموعة صغيرة من الشباب فى معتقل أبو زعبل تكفير الرئيس جمال عبد الناصر والنظام الحاكم فى مصر فى ذلك الوقت ، وفى سجن أبو زعبل وغيره من السجون التى ضمت المعتقلين الإسلاميين فى الدولة الناصرية انفجرت المناقشات حول هذه الفكرة الجديدة ، فسيد قطب تحدث بشكل عام واستراتيجي ولم يخص أو يعين شخصا أو دولة بحديثه عن الجاهلية أو الكفر أو الحاكمية أو العصبة المؤمنة ، لكن هذا الشباب الذى كان يتعرض لموجة ضاغطة وقاسية من التعذيب والاضطهاد على أيدى أجهزة الأمن فى هذا العصر كانوا قد فقدوا صوابهم ، وراحوا يوزعون أحكام التكفير هنا وهناك .

والمدهش أن فكرة التكفير التى انطلقت من سجن أبو زعبل بدت مثل كرة من الجليد تنحدر من فوق قمة جبل شاهق ، كلما قطعت مسافة نحو السفح تضخمت وتضاعفت قوتها وزادت سرعتها عشرات المرات .

فالشباب الذين كفروا الرئيس عبد الناصر ونظام الحكم فى مصر فى ذلك الوقت لم يتوقفوا عند هذا الحد ، بل قاموا بتكفير جماعة الإخوان المسلمين أيضا لسبب بسيط هو أن الجماعة لا تقوم بتكفير عبد الناصر ، وإلى هذا الحد وصلت فكرة التكفير ، لقد استباح هؤلاء الشباب لأنفسهم ليس فقط تكفير عبد الناصر بل

تكفير زملائهم فى السجن وشركائهم فى النضال من أجل الدولة الإسلامية من جماعة الإخوان المسلمين .

وكان منطق هذه المجموعة :

« أنه من العار على المسلمين أن يمسك بهم كالدجاج دون مقاومة ، ومن ثم فإن الإخوان - وقد وصل أغلبهم إلى حد التأييد - أصبح مشكوكا فى إيمانهم ، واتهمتهم هذه المجموعة بأنهم كانوا يكذبون على أنفسهم وعلى الناس عندما كانوا يقولون إن الموت فى سبيل اللّه أسمى أمانينا » .

كفَّر الإخوان بعضهم البعض ، وكفَّرت تلك المجموعة الرئيس عبد الناصر والنظام الحاكم برمته ، ولم يعد الحديث قاصرا على حدود الفكرة ، أي أن كرة التكفير لم تتوقف لكنها انحدرت من فوق رأس الجبل ، وبعد أن كان الحديث فكريا ونظريا داخل سجن أبو زعبل ، بدأ الحديث عن المقاومة ، وهذه المقاومة لم تكن سهلة هذه المرة ، فتلك هى المرة الأولى التى سوف يتم خلالها التعامل مع النظام على أنه نظام كافر ، فقد كان الإخوان طوال سنوات حركتهم يتعرضون للاضطهاد والسجن ولكنهم لم يعاملوا النظام الحاكم - بما فيه نظام الملك فاروق - على أنه نظام كافر .

لكن هؤلاء الشباب الذين نشأوا فى سجن أبو زعبل بدأوا إعلان الحرب على النظام بتكفير إخوانهم فى الاسلام والنضال ، وبالتالى كان سهلا عليهم أن يقوموا بتكفير كل من كان يؤمن بالرئيس عبد الناصر ، « فإما تؤمن باللّه أو تؤمن بعبد الناصر » !

وبتكون هذه الجماعة فى السجون ينتقل الفكر « القطبى » إلى مرحلة جديدة من التنظير السياسي أى التنظير الفقهى ، من الفكرة الحالمة بمجتمع العدل الإسلامى ، إلى التطبيق على أرض الواقع ومحاربة الكفر والجاهلية ، وربما لم يكن سيد قطب

نفسه يقصد هذا الشكل المتطرف من التفكير ، بل ولم يحلم أو يتمن أبدا أن تنتقل أفكاره إلى هذه الصورة الواقعية الكابوسية ، من أن يكفر المسلم أخاه المسلم ورفيقه فى زنزانة واحدة .

ودارت مناقشات حامية فى السجن بين جيل الإخوان والمكفرين الجدد حيث رفض الإخوان هذه الفكرة بصورة جازمة ، ونبهوا إخوانهم من جيل التكفير الجديد إلى أن تطبيق تصور الجاهلية وتكفير النظام والمجتمع سيترتب عليه أحكام فقهية شديدة التعقيد والصعوبة ومنها فسخ عقود الزواج بين الزوج وزوجته – حسب حكم كل واحد منهم على الرئيس عبد الناصر إن كان مؤمنا أو كافرا وعلى المجتمع إن كان جاهليا أم لا – ونبهوهم أيضا إلى ما يمكن أن يترتب على ذلك من عزلة سياسية واجتماعية على العصبة المؤمنة التى يسعون لتشكيلها بعيدا عن المجتمعات الجاهلية ، لكن فريقا كبيرا من هذه الجماعة الجديدة أكد أنه يقبل بهذه النتائج المأساوية وصار الزعيم الأوحد وأمير المؤمنين الجديد لهذه الفئة هو شكري مصطفى ، ونشأ هذا التنظيم الجديد الذى استخدمت الصحف فى تعريفه بعد ذلك اسم « التكفير والهجرة » .

رغم كل شيء ، ورغم الجهود التى بذلها عدد من كوادر الإخوان المسلمين لإقناع المكفرين الجدد بفساد أفكارهم ، صار التكفير هو القضية المحورية فى فكر الإسلام السياسى بعد ذلك وترتبت عليه مسائل سياسية وفكرية عديدة ، وبدأ شكرى مصطفى بعد خروجه من السجن استلهام تجربة العصبة المؤمنة الأولى فى الدعوة سرا بين الناس ، فى مجتمع يرى أنه كافر وأشد كفرا من المجتمع الأول فى قريش الذى ولدت فيه رسالة الإسلام الشريفة ، وراح شكرى مصطفى يؤسس لمنهج جديد ، فبما أن المجتمع من حوله كافر فبالتالى فإن أموال هؤلاء « الكفار » – الذين هم كل شعب مصر – حلال « للمسلمين » أي أعضاء جماعة شكرى

مصطفى ، وبالتالى فقد بدأت موجة من السرقات واستحلال الأموال بهذه الذريعة الفقهية وبهذه القراءة الشاذة للإسلام السمح ولأحكامه العطرة التى تدعو لأن يحل السلام والأمن على الأرض لا أن يكفر المسلم أخاه المسلم .

وانتقل شكرى إلى مرحلة العمل « الجهادى » بقتال « الكفار من شعب مصر حتى يقيم الدولة الإسلامية » وكانت كارثة خطف الشيخ محمد حسين الذهبى وزير الأوقاف فى ذلك الوقت والمطالبة بفدية كبيرة لإطلاق سراحه ، ثم التطورات الدموية التى جرت بعد ذلك والتى وصلت إلى حد قيام هذه الجماعة وزعيمها شكرى مصطفى بقتل الشيخ الذهبى أحد علماء الأزهر البارزين ، أى أن شكرى وأصحابه استحلوا الأموال والدماء المسلمة وطاوعتهم أنفسهم أن يقتلوا مسلما بريئا دون وجه حق ، ومن هو هذا المسلم ؟ لقد كان أحد مشايخ الإسلام البارزين وأستاذا بجامعة الأزهر أعرق الجامعات الإسلامية فى العالم ووزيرا للأوقاف وقائما على أمور وأموال أوقاف المسلمين .

وكانت تلك الحادثة نهاية هذه الجماعة التكفيرية غليظة القلب والضمير التى نشأت فى السجن منذ منتصف الستينيات ، وتم سحق هذه الجماعة على أيدى أجهزة الأمن بعد مقتل الشيخ الذهبى ، لكن هذا لم يكن يعني نهاية الفكرة ، فقد نشأت تيارات أخرى تؤمن بالمنهج نفسه ، وإن لم يكونوا أتباعا لشكرى مصطفى ، كما نشأت بعد ذلك تيارات راديكالية جديدة استمرت فى الطريق ذاته .

ففى مطلع السبعينيات وبالتحديد فى عام ١٩٧٤م تم الكشف عن تنظيم مسلح كان يهدف إلى اغتيال الرئيس السادات خلال اجتماعات اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي ، وقد سيطر هذا التنظيم على الكلية الفنية العسكرية استعدادا لهذه المعركة « على الطاغوت ورأس الكفر » حتى يتم التخلص من النظام « الكافر » وإحلال الدولة الإسلامية .

زعيم هذا التنظيم « صالح سرية » وهو من أصل فلسطيني وأقام فترة طويلة فى المملكة الأردنية الهاشمية وانضم لحزب التحرير الإسلامى قبل أن يأتى إلى مصر ويستقر فيها لفترة ثم يبدأ فى تحركه الفكرى والفقهى والسياسى ، وقد أكد سريه فى كتابه الشهير « رسالة الإيمان » أن الحكم القائم فى كل بلاد الإسلام هو حكم كافر لا شك فى هذا ، والمجتمعات فى هذه البلاد مجتمعات جاهلية ، لكن سرية لم يحكم بالكفر على الناس داخل هذه المجتمعات ، ولكنه اكتفى بتكفير الأنظمة السياسية فقط واعتبر أن الناس ضحية الحكم الكافر ، وأكد أن الشعوب عاجزة عن تغيير هؤلاء الحكام .

ورأي سرية أن الكافر هو كل من آمن بأن هذه الحكومات على حق وأن الإسلام على باطل ، أو آمن بأن الإسلام ينبغى أن يقتصر على قضايا العبادة ، أو كان غير مبال سواء جاء الإسلام أو لم يأت ، أو كان ناقما على هذه الحكومات لكنه يرى الإصلاح فى طريق غير طريقة الإسلام ، ويكون مؤمنا من هؤلاء الناس من آمن بأن الإسلام هو الحق وأن هذه الحكومات كافرة وعمل على تغييرها سواء سرا أو علنا.

ويرى سرية أنه بصفة خاصة فإن رجال الدولة ورموز النظام النافذين فى السلطة مدانون بالكفر بقدر ارتباطهم بالتشريعات غير الإسلامية تشريعا لها أو تنفيذا أو قضاءً بها ، وكذلك كل فرد من أفراد الشعب يرضي بها قلبيا .

وبهذا يصل التكفير إلى ذروته فى فكر صالح سرية الذى كان قد بدأ يتحرك بالفعل للقضاء على النظام الكافر نهائيا وتخليص المجتمعات من هذا الكفر وعودة الإسلام الصحيح ، فقام سرية بتجنيد العديد من الشباب كان بعض منهم من طلاب الكلية الفنية العسكرية وعلى رأسهم كارم الأناضولى ، كما جند سرية عددا آخر من المدنيين كان يلتقى بهم فى أماكن مختلفة فى القاهرة ، وبدأت ساعة الصفر بالفعل غير أن الخطة بكاملها قد انكشفت ، وراح ضحية هذه الحادثة الكثير

من الأرواح البريئة والطاهرة التى شهدت هذه الأحداث الدامية ، وتم إعدام صالح سرية نفسه ومعه كارم الأناضولى الذى كان مسؤولًا عن مجموعة الطلاب داخل الكلية الفنية العسكرية .

لكن كان الرئيس السادات نفسه بعد ذلك ضحية تهمة التكفير ذاتها التى انطلقت مثل كرة الثلج المتسارعة ، حكم المكفرون الجدد بالكفر على الرئيس عبد الناصر ، وحكم المكفرون الجدد على الرئيس السادات بالكفر أيضا قبل وبعد زيارة إسرائيل والجلوس مع « إسرائيل » فى كامب ديفيد ، لم يكن الصلح مع إسرائيل هو السبب الوحيد لاغتياله لكنه كان من وجهة نظر « حركة الجهاد الاسلامي » رئيسا كافرا ، لأن من لم يحكم بما أنزل اللّه فأولئك هم الكافرون ، والفاسقون ، والظالمون .

ذهب السادات فريسة سهلة لموجة جديدة من التكفير توجه سهامها إلى النظام السياسى دون الشارع ، فقد تعلمت حركة الجهاد أن الحكم بالجاهلية والتكفير على كل الناس يفقدها أنصارها عند أى عمل انقلابى ، لم يكن الناس هم الهدف ، لأنه على الأقل لا يوجد أى عائد سياسى لهذا التنظيم السرى فى الحكم بالكفر على الناس ، فما الذى سوف تكسبه الجماعة ، وإذا كان على استحلال الأموال ، فإن هناك كفارا جاهزين ولا يحتاجون إلى جدل من وجهة نظر حركة الجهاد وهم الأقباط ، الذين كانوا ضحية عمليات سلب ونهب واسعة تمت باسم الدين دون أن تستند إلى حكم يرفع عن الدين تهمة العدوان ، واستباحت جماعة الجهاد أموال الأقباط وراحت تسرق محلات الذهب لتمويل التنظيم ، وتلبية احتياجاته من المال والسلاح .

أما تكفير الجماهير فلم يكن له داع لأنهم فى النهاية هم هدف الدعوة ووقود الثورة الإسلامية - حسب تصور عبود الزمر أحد الزعماء البارزين لهذا التنظيم -

وبالتالى كان رأس النظام هو الهدف ، وظهر جيل آخرمن فقهاء الجهاد يبيح قتل رجال الشرطة والضباط والجنود ، بالضبط كهذا الجيل الذى ظهر فى الجزائر وراح يقتل الأطفال والنساء والرضع والعجائز لأنهم « كفار » - من وجهة نظر جماعة الجهاد الجزائرية - ولأن هؤلاء الضباط فى مصر يخدمون نظاما غير إسلامى - من وجهة نظر جماعة الجهاد المصرية -

وسالت الدماء فى أسيوط ، عشرات الضحايا سقطوا من أبناء مصر ، كثيرون منهم يشهدون أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه ، وبعضهم ربما صلي الظهر أو العصر قبل أن يروح ضحية جماعة حكمت عليه بالقتل وادعت أن هذا القتل هو من أجل اللّه .

جاء اغتيال السادات ليؤسس لمرحلة جديدة فى فكرة تكفير الحكام ، فقد سبق عملية الاغتيال إصدار قادة الجماعة عددا من التفسيرات الدينية والفقهية التى ضمنوها كتبا وكتيبات أشهرها كتاب « الفريضة الغائبة » لمحمد عبد السلام فرج ، وكتاب « أصناف الحكام وأحكامهم » للدكتور عمر عبد الرحمن الزعيم الروحى لتنظيم الجهاد منذ ١٩٨١ والزعيم الروحى للجماعة الإسلامية المحظورة حاليا .

نفس الفكرة التى أسس عليها سيد قطب منهاجه فى الحديث عن الحاكمية ، إذ لا حكم إلا لله سبحانه وتعالى ، فهو الذى خلق الخلق وهو الذى شرع لهم من الدين ما يحكم حياتهم وهو الذى يأمرهم وينهاهم ولا يوجد سلطان لأحد غير اللّه ، ومن وجهة نظر هذه الحركات فإن دور الحاكم هو الشهيرة فى سبتمبر ١٩٨١ فقد كانت فكرة التكفير أقوى من كل شيء ، فقد كان من الممكن أن يخطئ السادات فى قرار الصلح ، وكان واردا ان تؤدى حركته السياسية والاقتصادية إلى تصاعد الغضب الشعبي ، ولكن فكرة القتل تبقى مستبعدة تماما من المعادلة ، ولا يمكن أن تغزو هذه الفكرة عقل أحد إلا إذا كان على قناعة

كاملة بأن هذا الرجل الذى يوجه إليه رصاصات مسدسه كافر وخارج عن شريعة الإسلام ، وقد كان هذا بالضبط هو ما أفتى به عمر عبد الرحمن ، وهذا ما دشنه محمد عبد السلام فرج ، وهذه الفتوى التى قضت على الرئيس السادات ، وقد كان من اللافت أن خالد الاسلامبولى منفذ هذه العملية ينشد فى قاعة المحاكمة سعيدا ومبتهجا مؤكدا أنه قتل آخر فراعنة مصر ، والطاغوت الأكبر ، ولم يتراجع ولو للحظة واحدة - وحتى بعد صدور حكم الإعدام عليه - عن هذه الفكرة ، وظل على قناعة كاملة بأن السادات كفر كفرا يخرج عن الملة لأنه لا يحكم بشريعة اللّه ويحتكم إلى القوانين الوضعية بينما تقول الآية الكريمة : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء : ٦٥] . وتقول الآية الكريمة الأخرى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

هكذا صدر حكم الإعدام فى حق السادات ، وسقط فى هذه المعركة عشرات الضباط والجنود والمدنيين ، ولم تتوقف كرة الثلج المنحدرة بقوة لكنها اتسعت طوال هذه السنوات التى تلت هذه الواقعة ، وظل منهج الخروج على الحاكم وتكفيره والحكم بجاهلية المجتمع هو الفكرة السائدة والمهيمنة على بعض تيارات الحركة الإسلامية ، وكانت الجزائر وتجربتها الدموية خير شاهد على امتداد هذه الأفكار التى قتلت مئات الأبرياء من الأطفال والنساء والرضع والعجائز .

○ ○ ○

الفصل السادس

من الفقه إلى السياسة

لم تعد توجد نقطة التقاء .. صار كل شيء يحمل خاتم التكفير .. لا حلول وسط ... لا رؤى بديلة صار أبناء الدين الواحد ...كل منهم على دين مختلف

شهدت سنوات السبعينيات ظهور عدد من التنظيمات والجماعات الإسلامية التى تملك منهجها الخاص فى التعامل مع الواقع السياسي والاجتماعى والذى ينطوى على قدر عال من العنف ، وذلك خلافا لما اتبعته جماعة الاخوان المسلمين .

وقبل التعرض الي الموقف السياسي لهذه الجماعات تجدر الإشارة إلى ملاحظة رئيسية : هى أنه على الرغم من نمو الجماعات الإسلامية فى السبعينيات خارج نطاق « الإخوان المسلمين » ، إلا أنها ظلت التنظيم الأم الذى خرجت منه هذه الجماعات ، إذ أن أغلب أعضائها كانوا أعضاء فى « الإخوان المسلمين » وأمضى الكثيرون منهم فترات طويلة فى السجون بسبب هذا الانتماء ، ولذا فإن تلك الحقبة هى التى شهدت التشكيل الجنيني للجماعات الإسلامية الجديدة ، كما أن مؤلفات سيد قطب - المفكر الإخوانى - خاصة مؤلفيه « فى ظلال القرآن » و« معالم على الطريق » كانا فى مقدمة المراجع الفكرية التى تأثرت بها الجماعات الإسلامية التى ظهرت فى السبعينيات ، كما كان لها دور كبير فى التحولات الفكرية والتنظيمية التى طرأت على الحركة الإسلامية وبروز جماعات تركز حركتها حول « الجهاد الإسلامى » وترفع شعار « الحاكمية لله » ، « جاهلية المجتمع » وهى المفاهيم التى احتلت مكانة محورية فى كتابات سيد قطب ، وقد ترجمت الجماعات الإسلامية هذه المفاهيم فى شكل عنف سياسي واجتماعى بحيث شكلت ظاهرة من أخطر الظواهر السياسية والاجتماعية فى حقبة

السبعينيات واستمرت حتى منتصف التسعينيات .

وكما أسلفنا القول يرجع كثير من المؤرخين بداية بروز العنف فى التاريخ السياسي الإسلامى إلى وقت حدوث الانشقاق بين « على بن أبى طالب » و« معاوية بن أبى سفيان » ، فمنذ ذلك التاريخ وبنجاح معاوية فى الاستيلاء على الحكم وتأسيس الدولة الأموية ، ثم جعل نظام الحكم وراثيا ، عرف التاريخ الإسلامى والجماعات الخارجة عن الحكم والتى تعمل على اسقاطه بالعنف ، كما يرى كثير منهم ان العنف بدأ من معسكر الشيعة أنصار « على بن أبي طالب » بسبب فقدانهم للخلافة حيث تكاثرت الفرق التى انتهجت العنف كوسيلة للخروج على الحاكم « وهو ما أسس لفكر الخوارج » ويرى آخرون أن العنف بدأ من معسكر معاوية عندما انتزع الخلافة بحد السيف .

وتجدر الإشارة إلى حقيقتين هامتين: الأولى ، هى عدم حداثة ظاهرة « العنف الإسلامى » وإن كانت درجتها ترتبط بالسياق السياسي والاجتماعى الذى يسمح لها بالظهور والانتشار عبر المراحل التاريخية المختلفة ، والأخري ، أن نشأة فرق العنف المختلفة ارتبطت فى الأساس بالأسباب السياسية وليس الدينية الخالصة ، وفى هذا السياق ظهر منطق « التكفير » المتبادل بين الفرق والجماعات المتنازعة ، واستمرت هذه الظاهرة طوال عصور الدولة الإسلامية ، تبرز وتخبو حسب قوة أو ضعف الدولة حتى سقوط الخلافة العثمانية فى ١٩٢٤ ، وقد ظهر العنف السياسي الدينى مرة أخري فى التاريخ الحديث مع نشأة جماعة الإخوان المسلمين فى مصر فى أواخر العشرينيات وتشكيل جناحها العسكرى الذى عرف باسم « التنظيم السري » أو « النظام الخاص » وكان مسئولا عن حوادث العنف والاغتيالات

السياسية التى قامت بها الجماعة فى الأربعينيات والتى عرفها التاريخ السياسي لمصر قبل ١٩٥٢.

وقد برزت ظاهرة العنف الدينى المعاصر من خلال الجماعات الإسلامية المختلفة ، وإلى جانب تأثر هذه الجماعات من الناحية الفكرية بكتابات الإخوان المسلمين خاصة سيد قطب ، فقد كان هناك آخران كان لهما تأثيرهما البارز على صياغة أفكار أغلب هذه الجماعات أحدهما باكستانى هو «أبو الأعلى المودودي » ، والثانى إيرانى هو « على شريعتى » وتمثلت هذه الجماعات فى السبعينيات فى ثلاث هى : جماعة « شباب محمد » أو كما عرفت إعلاميا « بالفنية العسكرية » والتى كشفت عن وجودها فى عام ١٩٧٤ ، و« جماعة المسلمون » أو « التكفير والهجرة » كما عرفت إعلاميا فى ١٩٧٧وتنظيم الجهاد فى ١٩٧٩ ، والذى كان مسؤولا عن حادث اغتيال الرئيس السادات فى ١٩٨١.

○ ○ ○

جماعة الفنية العسكرية

هى جماعة « شباب محمد » لكنها عرفت إعلاميا باسم « الفنية العسكرية » بسبب قيامها فى عام ١٩٧٤ بالهجوم على الكلية « الفنية العسكرية » وتعد هذه الجماعة هى أول محاولة لتشكيل تنظيم يعتنق فكرة « الجهاد » الإسلامى ويهدف الي قلب نظام الحكم ، كما كانت هى أول جماعة دينية سياسية خارج نطاق الإخوان تصطدم بالسلطة فى عهد السادات .

وقبل التعرض لأفكار الجماعة واستراتيجيتها السياسية تجدر الاشارة إلى ملاحظتين رئيسيتين :

– إن قائد هذه الجماعة صالح سرية الفلسطينى الأصل الأردنى الجنسية ، لعب دورا محوريا فى تشكيل أفكارها وتحديد مسار حركتها السياسية من خلال مؤلفه « رسالة الإيمان » وهو كتيب يقع فى حوالى ٦٠ صفحة ويعتبر الوثيقة الفكرية الأساسية للجماعة.

– صالح سرية كان أحد أعضاء الإخوان المسلمين فى الأردن ، ثم انضم إلى « حزب التحرير الإسلامى » وبعد هزيمة ١٩٦٧ التحق بتنظيمات فلسطينية متعددة كان لها ارتباط ببعض النظم العربية مثل ليبيا والعراق .

ولاشك ان التجربة السياسية لصالح سرية لعبت دورا كبيرا فى تشكيل أفكاره وتوجيهها سياسيا ، وفى هذا السياق احتلت قضية الصراع العربى – الاسرائيلى الذى أكسبه بعدا دينيا باعتباره صراعا بين المسلمين واليهود أحد المحاور الأساسية فى تحديد الصراع مع النظام الحاكم ، وربما ليست مصادفة أن يكون قائد أول جماعة إسلامية « راديكالية » فى مصر فلسطينى الأصل ، فقد وقف هذا العامل وراء كثير من تفسيراته السياسية للدين والتى اتخذت توجها ثوريا يتفق واعتبارات الصراع الخفى الخاص بالقضية الفلسطينية .

وثائق القتل

١- أيديولوجية الجماعة :

تصف « رسالة الإيمان » نظام الحكم القائم بقولها : (إن الحكم القائم فى جميع بلاد الإسلام هو حكم كافر لا شك فيه) ، وتستند الوثيقة فى هذا الزعم إلى قاعدة « غلبة الأحكام » التى من خلالها يمكن تكفير الدولة ، حيث أن دار الإسلام عند الفقهاء هى الدار التى تكون فيها كلمة اللّه هى العليا ويحكم فيها بما أنزل اللّه حتى ولو كان كل سكانها من الكافرين ، ودار الحرب هى الدار التى تكون فيها كلمة الكفر هى العليا ولا يحكم فيها بما أنزل اللّه ولو كان سكانها من المسلمين ، ومن هنا فإن السبيل لتغيير الحكم « الكافر » هو « الجهاد » (فالجهاد لتغيير هذه الحكومات وإقامة الدولة الإسلامية فرض عين على كل مسلم لأن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة ، وهو الطريق لإقامة الدولة الإسلامية لأنه لا يجوز موالاة الكفار والأنظمة الكافرة) .

وقد ترتب على ذلك تحديد موقف الجماعة من قضيتين أساسيتين متعلقتين بشكل الحكم وهما قضيتا « الديمقراطية » و« الحزبية » اللتان تتخذ منهما موقفا رافضا « فالديمقراطية منهاج للحياة مخالف لمنهاج الإسلام » ، كما أن كل من « اشترك فى حزب عقائدي فهو كافر لاشك فى كفره ، فهذه الأحزاب لها عقائد ومناهج مخالفة لعقائد الإسلام »، كما تلخص الجماعة هذا الموقف بإشارتها إلى أن : « هناك حكومات وأحزاب وجماعات كافرة ، وفى مقابلها تعمل لإقامة الدولة الإسلامية فهناك إذن حزب الشيطان ، وحزب اللّه » .

ويأتى فى هذا الإطار الموقف من مؤسسات الدولة وأجهزتها المختلفة ، وهذه لا

ترفض الجماعة التعامل معها بشكل مطلق ، وإنما تضع له حدودا لكيفية التعامل معها واستخدامها لتحقيق الهدف الأعلى للجماعة وهو إقامة الدولة الإسلامية ، وينطبق نفس هذا الموقف النسبى من مؤسسات الدولة على الموقف من باقى أفراد المجتمع .

وتجدر الاشارة إلى أن الجماعة تحكم على المجتمعات القائمة بشكل عام بأنها فى مرحلة جاهلية : (إن المجتمعات كلها مجتمعات جاهلية) ، ولكنها تقف أمام أفراد المجتمع لتضع معايير محددة للحكم على « كفر » الفرد ، والمعيار الأساسى وفق هذا المنطق هو « عدم موالاته للحكومة الكافرة » وهو معيار فضفاض ويتسم بالعمومية الشديدة بحيث يترك مساحة واسعة للبلبلة الفكرية وإصدار أحكام عامة بالكفر على الأفراد .

٢- استراتيجية الجماعة :

فى إطار هذه الأيديولوجية العامة قامت استراتيجية الحركة فى التعامل السياسى على المواجهة العنيفة مع السلطة ، ويفسر أحد اعضاء الجماعة هذه الاستراتيجية بقوله : « كان مفهوم الجهاد فى ذلك الوقت يعنى عملية عسكرية ضد السلطة قبل أن تصطدم السلطة بالجماعة ويصبح مصيرها مثل مصير جماعة الإخوان المسلمين » ، أي أنها اختارت استراتيجية « هجومية وليست دفاعية » فى مواجهتها للنظام .

ورغم اتفاق الجماعة على ضرورة المواجهة مع السلطة ، إلا أنه ظهرت لها عدة اتجاهات حول شكل المواجهة وأسلوبها ، فكان هناك اتجاه عام داخلها يرى اتباع الإسلوب التقليدى للانقلاب العسكرى من خلال التغلغل فى الجيش للوصول إلى السلطة التى تضم - وفق رؤية الجماعة - تطبيق « الإسلام » وإقامة الدولة الإسلامية ، وفى المقابل كان هناك اتجاه آخر يرى اللجوء إلى أسلوب « حرب

العصابات » ضد مؤسسات الدولة ورموزها ، وقد جاء حادث التصادم مع السلطة الذى قامت به الجماعة فى عام ١٩٧٤ ترجيحا للأسلوب الأول - رغم تحفظ قائدها صالح سرية عليه وقتئذ - الذى رأى تأجيل الصدام مع السلطة لحين اكتمال قوة الجماعة .

وتم اختيار « الكلية الفنية العسكرية » كنقطة للهجوم وكان ذلك يوم ١٩ أبريل ١٩٧٤ وفى وقت اجتماع الرئيس السادات ببعض القيادات السياسية لمناقشة ورقة أكتوبر فى مبنى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى .

○ ○ ○

جماعة المسلمون

ترتبط نشأة وتطور هذه الجماعة بشخصية مؤسسها وأميرها العام « شكري مصطفى » الذى كان عضوا بجماعة الإخوان المسلمين حتى اعتقل فى ١٩٦٥ ولم يفرج عنه إلا عام ١٩٧١ ، ضمن المجموعات التى أفرج عنها السادات عقب توليه السلطة ، وقد بدأ مباشرة فى تشكيل جماعته الجديدة فور خروجه باسم « جماعة المسلمون » والتى بدأ الإعداد لها وتجنيد أعضائها منذ وجوده داخل السجن .

تتسم أفكار الجماعة بالرجوع مباشرة إلى المصادر الإسلامية الرئيسية (القرآن والسنة) وليس المذاهب الفقهية التقليدية ، وبالتالى فتفسير الإسلام وفق هذه النزعة يكمن فى هذين المصدرين ، وتتشابه الانتماءات الفكرية لهذه الجماعة مع الجماعة الأولى (شباب محمد أو الفنية العسكرية) من حيث التأثر بأعمال سيد قطب وأبو الأعلى المودودى فضلا عن فكر الخوارج ، كما تتفق أفكارهما فيما يتعلق « بتكفير » النظام السياسى ، وإن كانت تزيد عليها تكفيرها لباقى المجتمع ، حيث لا تري الجماعة – وفق رؤية أميرها شكرى مصطفى – فرقا بين النظام السياسي والمجتمع فى مجموعه استنادا إلى أن المجتمع الفاسد يقوم على نظام فاسد ، أو ما يسميه « بالجاهلية الجديدة » .

ولأن الجماعة لا تفرق بين الدولة والمجتمع ، فقد انعكس ذلك على علاقاتها بالمؤسسات القائمة التى حكمت عليها جميعا بالكفر ، وطالبت أعضاءها باعتزال الأجهزة الحكومية ومؤسساتها ، والامتناع عن أداء الخدمة العسكرية ، أو قبول الوظائف العامة التابعة للدولة ، ومقاطعة الصلاة فى المساجد العامة التى تنتشر فيها « البدع » وفق رؤية الجماعة .

وانعكست أفكار « جماعة المسلمون » على استراتيجيتها التى اختلفت فيها مع الجماعة الأولى حيث أنها اتسمت بالنفس الطويل والمرحلية لأن الحكم « بالكفر » لم يكن مقصورا على النظام وإنما على المجتمع أيضا ، وبالتالى فإن « الانقلاب السريع » لم يكن يمثل الاستراتيجية الملائمة لأفكار شكرى مصطفى ، لكنه رأى ضرورة اعتزال المجتمع « أسوة بما فعله الرسول الكريم محمد – صلي اللّه عليه وسلم –حين هاجر من مكة إلى المدينة لتكوين أنصار له » ثم العودة إليه مرة أخرى بعد استكمال الجماعة لقوتها لإقامة المجتمع المسلم ، وقد مارست الجماعة هذه العزلة حين لجأت مجموعة منها إلى الإقامة بالمنيا منذ عام ١٩٧٣ فى حالة شبه منعزلة عن المجتمع .

ورغم أن الاستراتيجية التى قامت عليها حركة « جماعة المسلمون » جعلت منهجها فى العنف يختلف عن منهج جماعة « شباب محمد » إلا أن ذلك لم يحل دون إقدامها فى عام ١٩٧٧ على اختطاف الشيخ محمد حسين الذهبى وزير الأوقاف الأسبق واغتياله ، ربما سبب غلبة منطق « التكفير » على أفكارها .

○ ○ ○

تنظيم « الجهاد »

تعود جذور هذا التنظيم إلى جماعة الفنية العسكرية التى تم الكشف عنها فى عام ١٩٧٤ ويمكن اعتباره إحدى حلقات تطورها التى مرت بمرحلتين عامى ١٩٧٧ و ١٩٧٩ ، وقد تشكل التنظيم الأول على يد اثنين من أعضاء جماعة الفنية فى عام ١٩٧٧ بالإسكندرية تحت اسم جديد وهو « الجهاد » أما الآخر فقد شكله محمد عبد السلام فرج بعد أن انضم فى أوائل عام ١٩٧٨ إلى تنظيم « الجهاد » بالإسكندرية قبل أن ينشئ تنظيما فى القاهرة فى العام التالى « ١٩٧٩» تحت نفس الاسم ، واعتبر فرج مؤسس التنظيم ومنظمه حيث كتب كتيبا باسم « الفريضة الغائبة » اعتبر بمثابة الوثيقة الفكرية الرئيسية للجماعة ، وقد لخصت الوثيقة أفكار التنظيم حول قيام الدولة الإسلامية وعودة الخلافة .

ويعتبر مبدأ الجهاد هو الفكرة المحورية التى صاغ عبد السلام فرج أفكاره حولها ، وحدد من خلالها استراتيجية التنظيم السياسية ، وتبدأ مقدمة « الفريضة الغائبة » بالتنويه إلى خطورة إغفال مبدأ الجهاد بالقول : « إن الجهاد فى سبيل اللّه بالرغم من أهميته القصوي وخطورته العظمي على مستقبل هذا الدين فقد أهمله علماء العصر وتجاهلوه بالرغم من علمهم بأنه السبيل الوحيد لعودة ورفع صرح الإسلام من جديد ، والذى لا شك فيه هو أن طواغيت هذه الأرض لن تزول إلا بقوة السيف » .

وتلخص الوثيقة التى استندت إلى بعض القواعد الفقهية والفتاوي والتى قدمها بعض العلماء فى العصور الماضية ، إلى تكفير الحكم وضرورة الخروج على الحاكم .

ومن هذا المنطلق الفكرى حدد فرج استراتيجته فى « الجهاد » وفقا لمعيارين : الأول ، وهو تحديد « العدو القريب والعدو البعيد » ، والآخر هو وجود القتال

كفرض عين على كل مسلم ، بالنسبة للمعيار الأول ، يعطى الأولوية للخروج على نظام الحكم « الداخلي » قبل مواجهة أى تحد للقوى الخارجية ، فيقول : « هناك من يقول بأن ميدان الجهاد اليوم هو تحرير القدس كأرض مقدسة ، والحقيقة أن تحرير الأراضي المقدسة أمر شرعي واجب على كل مسلم ولكن يجب توضيح أن قتال العدو القريب أولى من قتال العدو البعيد ...لأن دماء المسلمين التى ستنزف حتى وإن تحقق النصر لن تكون لصالح الدولة الإسلامية ، وإنما لصالح الحاكم الكافر القائم .. وهو تثبيت لأركان الدولة الخارجة عن شرع اللّه .. ويضيف : « إن أساس وجود الاستعمار فى بلاد الإسلام هم هؤلاء الحكام فالبدء بالقضاء على الاستعمار هو أمر غير مجد وغير مفيد » ، ثم يتحدث عن المعيار الثانى بوجوب القتال أو « الجهاد » ضد الحكام بأنه فرض عين على كل مسلم .

ومن هنا أسبغ تنظيم الجهاد شرعية دينية على استراتيجيته فى العنف المسلح لمواجهة النظام القائم ، وقد اعتمد التنظيم فى هذا السياق على فتوى لابن تيمية أصدرها للرد على بعض الأسئلة التى وجهت إليه جاء فيها بأن : « زعماء المغول غير مسلمين رغم إيمانهم بوحدة اللّه وبرسالة محمد » لتبرير تدبيره اغتيال رئيس الدولة فى اكتوبر عام ١٩٨١ باسم « الجهاد الإسلامي» .

والواقع أن كتاب « الفريضة الغائبة » يكتسب أهمية كبيرة ليس فقط لارتباطه المباشر بحادث اغتيال الرئيس السادات ، وإنما أيضا لأنه اعتبر وثيقة أساسية للتبرير الفقهى الذى اعتمد عليه تنظيم الجهاد فى إباحة القتل ، واستحلال المال العام ، ومحاولة قلب نظام الحكم ، وتجدر الإشارة الي أن « الفريضة الغائبة » ظلت منذ وضعها عبد السلام فرج ، هى المنبع الرئيسى لأفكار تيار « الجهاد فى مصر رغم

التغيرات التنظيمية التى طرأت عليه منذ نشأته فى أواخر السبعينيات ، إذ ظلت الوثائق والبيانات المتفرقة التى صدرت باسم « تنظيم الجهاد » بعد ذلك تؤخذ عن كتاب « الفريضة الغائبة » وتعتبره المصدر الرئيسي لها ، ومن قبلها « رسالة الإيمان » لصالح سرية حيث سبقت أطروحاته الفكرية عن « الجهاد » فى الإسلام ومقاومة الحكومات القائمة عمل عبد السلام فرج ، ويعتبر مضمون الوثيقتين واحدا رغم الفروقات التفصيلية التى تتعلق باستراتيجية الحركة خاصة فى مجال التعامل مع أجهزة الدولة ومؤسساتها المختلفة ، إذ أن بعض الأفكار التى طرحها صالح سرية حول جواز العمل الحزبى المشروط ، ودخول الانتخابات والمشاركة فى الوزارات ، والعمل فى مختلف أجهزة الدولة بغرض خدمة الحركة الإسلامية ودعمها لم تلق قبولا عند عبد السلام فرج الذى اتخذ موقفا أكثر تشددا ، برفض التعامل مع مؤسسات الدولة .

وتأثر تيار الجهاد – بمجموعاته المختلفة – أكثر بآراء الأخير فى مجال العمل السياسي أو فى استراتيجية الحركة ، وإن كان فى المقابل تأثر بأفكار الاثنين حول القضايا المشتركة الرئيسية على صعيد الأفكار والتى يمكن تلخيص أهمها فى اعتبار « الجهاد » هو الطريق لإقامة الدولة الإسلامية ، أى اعتماد القوة والعنف كوسيلة لتغيير نظام الحكم « بتكفير » الحاكم وبجاهلية المجتمع واعتباره « دار حرب » ، ورفض القوانين المعمول بها باعتبارها قوانين « كفر » .

ورغم تعدد هذه الجماعات والتنظيمات إلا أن ثمة ملاحظات عامة تشير إلى كثير من نقاط الالتقاء ويمكن إيجازها فى الآتي :

١- تشابه الخلفية الاجتماعية لأعضاء هذه الجماعات ، حيث ينتمي أغلبها إلى

شرائح الطبقة الوسطي خاصة الدنيا منها من ذوي الأصول الريفية ، فضلا عن الانتماء إلى فئة عمرية واحدة « تقع بين ١٨ - ٣٥ عاما » وكان أكثرهم من الطلاب .

٢- إنه رغم بعض الفروقات فى الهياكل التنظيمية والعلاقات الهرمية بين القيادة والأعضاء فى كل من هذه الجماعات ، إلا أن التشكيل التنظيمى على مستوى العمل الحركى التنفيذى ظل متشابها ، حيث اعتمد على شكل المجموعات أو الخلايا الصغيرة العدد والتى تتفق مع طابع السرية لعمل هذه الجماعات ، فضلا عن توفير سهولة الانتشار وتجنب الضربات الأمنية الشاملة .

٣- التشابك التنظيمى بين الجماعات والتنظيمات المختلفة ، إذ على الرغم من صعوبة الحكم بشكل قاطع على مدي الارتباط العضوي بينها ، إلا أن ما يمكن التأكيد عليه هو وجود نوع من التداخل بين الجماعات المختلفة ، ويظهر ذلك بشكل خاص فيما يتعلق بالعضوية حيث شهدت بعض هذه الجماعات تنقلات عديدة بين أفرادها من جماعة إلى أخرى كما يظهر فى حالة جماعة « الفنية العسكرية » حيث تحول بعض أعضائها إلى جماعة « المسلمون » التى ظهرت بعدها بخمس سنوات ، وقام بعضها الآخر بتأسيس تنظيم « الجهاد » وإلى جانب هذا التداخل والتحول يجدر التركيز بالانتماء السابق لبعض قيادات ومؤسسي هذه الجماعات إلى جماعة الإخوان المسلمين .

وربما يثير التداخل بين الجماعات المختلفة ، والتحولات التى تطرأ على أفكار أعضائها ، طبيعة الدور الذى أصبحت تلعبه السجون فيما يمكن تسميته « بإعادة التنشئة» حيث تتحول لأماكن للتجمع واللقاء والحوار ، ومراجعة استراتيجية الجماعات بعد كل ضربة أمنية تتعرض لها وهى تعد بذلك إحدى الوسائل الجديدة

للتجنيد ، ولبث الروح الجماعية بين مختلف الأعضاء .

ويدل على ذلك أن التشكيل الجنينى للجماعات الإسلامية التى ظهرت فى السبعينيات نما فى المعتقلات التى ضمت أعضاء وقيادات الإخوان المسلمين فى الستينيات وهو ما أسفر عن قيام البعض منهم بتأسيس جماعات جديدة عقب الخروج من السجن لتأخذ منهجا سياسيا مغايرا للمنهج الذى سارت عليه جماعة الإخوان وتعد حالة شكري مصطفى مؤسس جماعة « المسلمون » نموذجا بارزا على ذلك ، هذا فضلا عن التحولات التى طرأت على أعضاء بعض الجماعات الأخري - داخل السجون أيضا - والتى سبقت الإشارة إليها .

٤- وأخيرا ، فإن أسلوب « التجنيد » لهذه الجماعات اعتمد فى الأساس على دور العبادة إلى جانب عامل القرابة والصداقة ، وإذا كان العاملان الأخيران يعتبران من الدوائر المغلقة نسبيا إلا أن الوسيلة الأولي وهى دور العبادة أي « المساجد » كانت من أكثر طرق التجنيد فعالية على المستوى القاعدى .

○ ○ ○

الأبعاد والأصول الاجتماعية

الغضب الاجتماعي :

انتمي معظم أعضاء هذه الجماعات إلى الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى ؛ من ذوى الأصول الريفية حديثة الاستيطان بالمدن ، ويمثل أغلب هؤلاء الأعضاء الجيل الأول من مهاجري الريف إلى المدينة وتوضح المؤشرات الخاصة بالتوزيع المهنى والجغرافى لهذه الجماعات تفاصيل هذا البعد الاجتماعي ، فمعظم أعضاء هذه الجماعات هم من الشباب المتعلم تعليما مدنيا حديثا ، كما كانت أعلى نسبة من الطلبة وأدناها من الفلاحين ، فأغلب أعضاء جماعة الفنية العسكرية على سبيل المثال كانوا من طلاب خريجى كليات الطب والهندسة والفنية العسكرية ، وكان من بينهم بعض الضباط ، كما كانوا من أبناء موظفى الدولة وصغار ومتوسطي الملاك فى الريف والمدن ، وينطبق نفس الشيء على أغلب أعضاء الجماعات الأخرى « التكفير والهجرة ، والجهاد » .

ويعكس التوزيع الجغرافى فى نفس المعني فتركز وجود هذه الجماعات فى المدن الكبرى وخاصة فى العاصمة فى المناطق التى يطلق عليها هوامش المدن ، وهى ظاهرة ملحوظة فى محافظتى القاهرة والجيزة حيث الوجود المكثف يقع فى مناطق مثل المطرية والزيتون وروض الفرج وعين شمس والزاوية الحمراء ، والتى تعد من أكثر الأماكن التى تجمع المهاجرين من الريف ، وفى الجيزة كان التركيز فى مناطق مشابهة مثل بولاق الدكرور ومنطقة الهرم ، أي إنها مناطق تعرف العمران العشوائى والتكدس السكانى ونقص الخدمات ، وبالتالى التدنى الواضح فى مستويات المعيشة .

أما مركز الثقل الجغرافى الآخر للجماعات الإسلامية فهو فى صعيد مصر ، وخاصة فى العواصم الريفية ، ويرجع ذلك أيضا إلى الأوضاع الاجتماعية ، حيث تعاني تلك المناطق من درجة تأخر ملحوظة عن باقى أنحاء الجمهورية ، ويظهر ذلك من خلال تدنى مستويات المعيشة ، وسيادة نمط مغلق من الثقافة تسود فيه العادات والتقاليد الجامدة التى يعرفها صعيد مصر منذ قرون بعيدة ، ويضاف إلى ذلك الاتساع الذى شهدته العواصم الريفية مثل أسيوط والمنيا وفتح كليات جامعية جديدة بها ، مما جعلها أكثر عرضة لعوامل عدم الاستقرار الاجتماعي .

ومن هنا يصنف كثير من الباحثين جماعات العنف السياسى الإسلامى كحركات « احتجاج اجتماعى حضرية » تعبر عن أزمة الطبقة الوسطى الصغيرة ، فكما يشير « هاينبوش » إلى إن ظهور جماعات العنف الإسلامية هو انعكاس لتراكم مجموعة من الأسباب التى ترجع إلى التغيير الاجتماعي السريع غير المتوازن ، ويقر ذلك من خلال مؤشرين أساسيين : الأول ، هو التحضر الواسع الذى نقل أعدادا هائلة من الريف إلى المدن بدرجة تفوق قدرة القطاع الاقتصادى الحضري على أن يستوعبه ، وهو ما ولد لدي هؤلاء المهاجرين درجة عالية من الإحباط الاجتماعي والشعور بالاغتراب ، أي أنه أدي فى النهاية إلى ما يعرف بأزمة « هوى » بسبب عوامل التهميش التى يتعرضون لها فى المدن ، واستعدادهم بالتالى للانخراط فى حركات الاحتجاج والرفض .. والثانى ، خاص بمشاكل السياسة التعليمية التى تخرج سنويا فائضا ضخما من خريجى الجامعات أصحاب المؤهلات الدراسية العليا الذين لا تستوعبهم التنظيمات الاقتصادية مما جعل الجامعات بدورها تشكل أرضا خصبة لحركات المعارضة ، وأصبح النظام التعليمى

نفسه مولدا محتملا للعنف حيث تزداد درجة الوعى لدي المتعلمين - خاصة الجامعيين - دون أن تصاحبها قدرة موازية من النظام السياسي على إرضاء الطموحات الاجتماعية التى تزداد بحكم التعليم .

وبهذا المعنى فإن جماعات العنف السياسى الإسلامى ظهرت كتعبير عن الاحتجاج الاجتماعي المرتبط بإحباطات الطبقة الوسطى خاصة فى شرائحها الدنيا ، التى تعانى الكثير من عوامل القلق والتذبذب وعدم التحديد بسبب عوامل التغيير والحراك التى تمر بها والتى تجعلها دائما فى وضع عدم استقرار اجتماعى ، ومن هنا فإن انتماء أعضاء الجماعات الإسلامية اجتماعيا إلى هذه الطبقة يعكس هذا الاضطراب ، حيث عبروا عن الطبقة الدنيا القادمة من الريف فى مرحلة انتقالية إلى الطبقة الوسطى الدنيا الحضرية وهى بذلك تكون مؤهلة أكثر من غيرها للتعبئة السياسية والتمرد .

○ ○ ○

الفصل السابع

حقيقة التكفير وتأويل كلام اللَّه

كانت اللعبة دوما عبر هذه الحقب هى فى تأويل النصوص المقدسة للطريقة التى ترضي أصحابها وتحقق أهدافهم من معركة صفين وحتى الجماعات الراديكالية فى التسعينيات لكن الحقيقة الساطعة حول الكفر والإيمان قد تبدو مختلفة كثيرا ...

الثابت لدى علماء الإسلام أن المعاصي لا تخرج المسلم من الإيمان ، ما لم يستحلها ، وما يقصده العلماء بالاستحلال تبرير المعصية وعدم الخوف من العقوبة ، والسرقة ، وشرب الخمر وغير ذلك من معاص قد يقترفها المسلم المؤمن فى لحظة من لحظات ضعفه وغفلته ، ولا تخرجه عن الإيمان ، ودليل هذا معلوم من الكتاب والسنة ، ومن أشهر ذلك حديث أبي ذر رضي اللَّه عنه قال : أتيت النبى صلي اللَّه عليه وسلم وهو نائم عليه ثوب أبيض ، ثم أتيته فإذا هو نائم ، ثم أتيته وقد استيقظ ، فجلست إليه ، فقال : « ما من عبد قال لا إله إلا اللَّه ، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة » ، قلت : وإن زني وإن سرق؟ قال : « وإن زنى وإن سرق » ثلاثا ، ثم قال فى الرابعة « على رغم أنف أبى ذر »[1] .

فهذا الحديث حجة وصحة فى هذا الصدد وليس له مخالف عند أهل السنة والجماعة ، ولكن بعضهم تهاون فى هذا الأمر حتى ظن أن ممارسة المعاصى دائما دون خوف من عقاب وخشية من عذاب غير مناقضة للإيمان ، واشتط فى هذا الأمر الخوارج والمعتزلة فظنوا أن المعصية هادمة لكل عمل صحيح سلف من المؤمن فإن مات ولم يتب دخل النار أبدا ، وهذا غلو بعيد .

(١) رواه البخاري [٥٨٢٧] ، ومسلم [٩٤ / ٥٤] واللفظ له .

وحديث أبي ذر هذا لا يناقض حديث أبي هريرة الذى يقول فيه الرسول صلى اللَّه عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » [1] فإن هذا الحديث نص فى انتفاء الإيمان وقت المعصية فقط..ومعنى انتفاء الإيمان هو غياب حقيقته من القلب ، ومن فهم قضية الإيمان عرف معنى غياب الحقيقة وقت الفعل ، فالإيمان خوف من اللَّه الواحد ، المطلع على كل شيء ، القادر على عذاب من يعصيه ، هذه الحقيقة من حقائق الإيمان ، أترى أن إنسانا يرتكب جريمة الزنى مثلا وهو يعلم أن ربه مطلع عليه ، مراقب له وأنه سيحاسبه على ذلك وأنه ملاقيه يوم القيامة ، ويبقى مستمرا فى فعلته القبيحة ... لو آمن هذا الرجل وقت هذه الجريمة لجمد الدم فى عروقه ولقام من فوره خائفا فزعا ، ولكن استمراره دليل غياب حقيقة الايمان من قلبه ، فإذا انتهى وتذكر وأبصر ندم وخاف ، وهذا هو الإيمان ، وإن لم يتذكر ولم يندم ولم يخف فلا إيمان البتة لا قبل الجريمة ولا أثناءها ، ولا بعدها ... ومن شهد بالإيمان لمثل هذا الذى لا يندم على فعلته ولا يخاف اللَّه بسبب جرائمه فقد جهل وشهد بالباطل .

ورغم هذا البيان إلا أن هناك الكثير من الخلط فى قضية الإيمان والكفر فإن بعض الناس يحكم فيها حكما خاطئا بسبب التصور الناقص ، وهى :

– النطق بكلمة الكفر اضطرارا لا يخرج المسلم من دينه ، ولا ينقل المؤمن عن إيمانه ، والأصل فى هذا قول اللَّه تبارك وتعالى :

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ

(١) رواه البخاري [٢٤٧٥] ، ومسلم [٥٧ / ١٠٠] واللفظ له .

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [النحل] .

وقد نزلت الآيات بشأن عمار بن ياسر رضى اللَّه عنه لما اضطر إلى أن يقول للكفار ما يريدون ، بعد أن عذبت أمة سمية رضى اللَّه عنها وأرضاها بأن ربطت بين جملين ثم جاء عدو اللَّه أبو جهل فاتهمها بأنها لم تسلم إلا من أجل الرجال !! ... ثم ضربها فى عفتها بحربة فأرداها قتيلة .ثم مات زوجها تحت التعذيب بعد ذلك ، وقد رخص رسول اللَّه لعمار الذى أتي الرسول باكيا من قوله بلسانه كلمة الكفر ، فمسح رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم على أحزانه وقال : « إن عادوا فعد » [1] أي إن عادوا إلى التعذيب فعد إلى القول .. ثم نزلت الآيات لتدوين هذه الرخصة الي يوم القيامة .

وخلاصة هذا الأمر أن النطق بكلمة الكفر فى الفتنة رخصة غيرها أولى منها ، وأما قتل مسلم أو الاعتداء على عرضه باسم الاضطرار فغير جائز .

تأويل كلام اللَّه

من الأمور التى يرمى بسببها بعض المسلمين إخوانهم بالكفر هو تأويل كلام اللَّه وصرفه عن ظاهره خطأ واجتهادا والحق أن هذا من الأمور الدقيقة والخطيرة وذلك أن هذه المسألة تتعلق بالقلب أكثر مما تتعلق بالظاهر ، وذلك أن التأويل قد يصدر من الخاطئ المتعمد للإفساد والغواية وتلبيس الحق بالباطل ، وهذا كفر والعياذ باللَّه وقد يصدر من مجتهد لم يظهر له وجه الحق فأول كلام اللَّه وصرفه عن ظاهره ، ولا يحدد الفرق بين هذا وهذا إلا علام الغيوب المطلع على السرائر سبحانه وتعالى .

(١) ذكره النيسابوري في أسباب النزول من قول ابن عباس معلقا .

لذلك فالمسارعة إلى تكفير شخص ما صدرت منه فتوي أو رأى جاء على خلاف كلام اللَّه تبارك وتعالى تعجل غير محمود ، وإنما الواجب فى مثل هذه الأمور هو التعرف الكامل على مراد المتكلم من كلامه ، والغاية التى يقصدها فى النهاية وإقامة الحجة عليه إن كان بالإمكان ذلك .

وهذا الكلام المجمل يحتاج الي تفصيل :

- لكل متكلم مقصد يريده .. وفى سبيل ذلك يتخذ الأسلوب الذى يقدر عليه ، وقد يخونه الأسلوب وتختلط عليه الكلمات فتحتمل معنى لا يريده أبدا ، ولا يقصد إليه ، فمن الخطأ كل الخطأ تفسير كلام إنسان ما حسب ما يقتضيه أسلوبه ، بل حسب ما يريد هو أن يعبر عنه ، ولذلك لا يجوز أن نفسر كلام شخص ما إلا بعد معرفة المعنى الذى يريد التعبير عنه ، وليحمل بعد ذلك الأسلوب على المعني المراد ولا يقتصر هذا فى كلام البشر بل يجب تطبيق هذه القاعدة نفسها فى كلام اللَّه وكلام رسوله صلى اللَّه عليه وسلم

- إذا فهم المعنى الذى يريد المتكلم الوصول إليه ، فليكن النظر بعد ذلك فى الغاية والهدف الذى سيق المعنى من أجله ، فقد يكون المعني فى ذاته صوابا ، والهدف الذى يريد المتكلم الوصول إليه باطلا ولا تنس الكلمة العظيمة « كلمة حق أريد بها باطل » ، فكم من كلام حق فى نفسه ولكن قائله ما أراد به إلا الشر والفتنة ، وليس هذا مجال التمثيل والتوضيح .

- إذا تحدد المعني والهدف اتضح السبيل ، وليس على المسلم بعد أن رأي عوجا وانحرافا إلا أن يقيم الحجة إن أمكنه ذلك ، فإن رد أحدهم بعد علمه وكابر وجحد عن علم وبصيرة فهو الزيغ والعياذ باللَّه .

وعلى كل .. فهذا المجال محفوف بالمخاطر لأنه فى غالبه اتهام للنيات ، واتهام النيات شيء خطير إن لم يقم على أسس ثابتة قطعية صريحة ، وأما مجرد الشبهات والظواهر وتتبع الأخطاء فكل ذلك لا يجوز أن يحمل مسلما على تكفير مسلم ، ولم يبق إلا إقامة الحجة والأعذار إلى اللّه وبيان الخطأ دون اللجوء إلى التكفير والتشهير ، والحكم أولا وأخيرا لله رب العالمين والعليم بالنيات والمطلع على السرائر .

ولقد كان تأويل كلام اللّه وصرفه عن ظاهره - وما يزال - أعظم الأبواب التى فتحت على المسلمين ، فيجب الحذر منه كل الحذر .

وقد كان من الأسباب التى ساعدت على التأويل ما يأتي :

١- اللغة العربية بحسب وضعها ، فيها كثير من الصور البلاغية والبيانية التى تلجأ إلى التمثيل والتشبيه والاستعارة والكناية ، وفيها من وجوه المجاز ما فيها ، ولقد ساعد هذا على اختلاف الآراء وتباين الأفكار ، ليس فى الأمور العملية الشرعية وحدها بل وأيضا فى الأمور العقائدية الإيمانية ، وليست هذه ثغرة فى اللغة العربية أو نقصا ، وإنما كل اللغات كذلك ، وإن كانت اللغة العربية أثراها ، وأكثرها تصرفا فى القول وتحسينا فى البيان ، وهذا فى حقيقته ميزة وليس بثغرة .

٢- استغل المبطلون من أعداء الإسلام وأهل الأهواء هذا فلجأوا إلى تحريف الإسلام من داخله بدعوى أن هذا مضمون اللفظ والمعنى المقصود ، ولجأوا إلى تحريف الآيات والأحاديث التى تعارض المعني الخبيث الذى يريدون الوصول إليه .

٣- ثم جاء من يحمل كلام اللّه على معان لا يريدها اللّه ورسوله جملة وتفصيلا وبذلك نشأت التأويلات البعيدة وكلها تحت ستار الإسلام .

ولذلك فيجب التصدى لكل ذلك والرجوع فى فهم الإسلام إلى بساطته

الأولى ، والقواعد العربية ، والالتزام بظاهر اللفظ دائما ، إلا إذا جاء دليل حتمى نعلم به يقينا أن مقصود المتكلم من كلامه ليس هو ظاهر لفظه وإنما هو معنى آخر .

ولذلك فلا يجوز لنا - والحالة هذه -التعجل فى إطلاق لفظ الكفر على من ظهر التأويل فى كلامه إذا عرفنا مقصده وغايته وأنها ليست تحريفا للإسلام ولا إيثاراً للباطل على الحق ، ولذلك لم يكفر علماء السلف المعتزلة ، والمؤولون من الأشعرية لأن غايتهم كانت دفاعا عن حوزة الإسلام ، وتصديا للزنادقة والفلاسفة وإن كان هؤلاء العلماء من السلف قد حكموا ونشروا بأن كتب الكلام التى ألفوها فى العقيدة الإسلامية باطلة يجب حرقها ولا يجوز ميراثها وكلام الإمام الشافعى رضي اللَّه تعالى عنه واضح صريح فى هذا ، وكذلك كلام الإمام أحمد بن حنبل رضى اللَّه عنه .

وهذا الموقف الصلب السليم الذى وقفه علماء السنة فى كل عصر هو الموقف اللازم فى عصرنا الحاضر ، حيث كثر المبطلون المؤولون الزاعمون نصر الإسلام والمسلمين .

فالرد إلى كتاب اللَّه وهدى رسوله صلى اللَّه عليه وسلم أولا وتحريم التأويل مالم يأت دليل قطعى يبين أن مراد اللَّه ومراد رسوله ليس الظاهر المتبادر وإنما هو المعنى الآخر المؤول .. هذه أمور يجب التمسك بها ، وفهمها فهما جيدا وتعلم تطبيقها على شتي أنواع التأويلات ليكون المؤمن على بصيرة من أمره .. ثم بعد ذلك ترك الرمى بالكفر وغيره إلا بعد البيان القطعى الذى لا يقبل المكابرة والجدل .

○ ○ ○

الفهرس

العنوان **الصفحة**

فتاوى مشتعلة ٥

الفصل الأول « متى بدأ البركان »

الغنوصية « العرفانية » ٢٠
الزرادشتية ٢١
المانوية ٢٣
المزدكية ٢٨
الثقافة الهندية ٣٠
البرهمانية ٣١
البوذية ٣٢
صفين المأساة ٣٤

الفصل الثاني « النيران تشتعل »

الشيعة ٤٤
فرق الشيعة ٤٥
المرجئة ٤٧
الاختلاف حول الأصول ٤٩
الثقافات الأجنبية وحركة التكفير ٥٠
الجبرية ٥٢
القدرية ٥٤
المشبهة ٥٥
المعتزلة ٥٦
فصل آخر من فصول التكفير والسلطة ٦١

الفصل الثالث « ضحايا وجناه »

الكندي فيلسوف الإسلام الأول ٦٧
ابن باجة ٦٩

السهروردي .. الفيلسوف المقتول ٧٠
ابن مسرة ٧٣
ابن رشد ٧٤
الحلاج .. الصوفي الثائر ٧٨

الفصل الرابع « حاكمية وجاهلية »

هل كان سيد قطب يدعو إلى التكفير ؟ ٩٠
الحاكمية ٩١

الفصل الخامس « مواسم القتل »

سجن أبو زعبل وتكفير الإخوان بعضهم لبعض ٩٧
بدء ظهور جماعة التكفير والهجرة ٩٨
حادثة مقتل الشيخ الذهبي رحمة اللّه تعالى عليه ٩٩
الرئيس السادات راح ضحية تهمة التكفير ١٠٢
الجماعة الإسلامية ... وأحداث أسيوط ١٠٣

الفصل السادس « من الفقه إلى السياسة »

جماعة الفنية العسكرية ١١٠
وثائق القتل ١١١
جماعة المسلمون ١١٤
تنظيم الجهاد ١١٦
الأبعاد والأصول الإجتماعية ١٢١

الفصل السابع « حقيقة التكفير وتأويل كلام اللّه »

حقيقة التكفير ١٢٧
تأويل كلام اللّه ١٢٩
الأسباب التي ساعدت على التأويل ١٣١

○ ○ ○

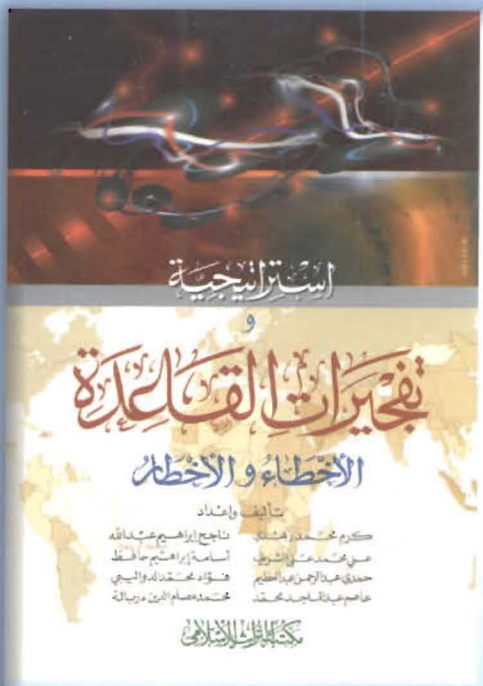

في هذا الكتاب :

مع حلول صيف ١٩٩٧م اتضح للمهتمين بالشأن الإسلامي أن هناك رؤيتين متباينتين للجهاد ، فقد أعلنت الجماعة الإسلامية مبادرتها القاضية بوقف العمليات القتالية داخل مصر وخارجها داعية لرؤية تعتمد على الحوار بدلا من الصدام ، وفي توقيت مقارب أعلن تنظيم القاعدة عن تكوين الجبهة العالمية لقتال اليهود الصليبيين ودعمها بإعلان فتوى قتل المدنيين الأمريكان في أي مكان أو زمان . وكانت كل رؤية تعبر عن اختيار مختلف على مستوى الأهداف والسياسات وتركز على فهم مختلف للجهاد كفريضة وأحكام ، وتنطلق من قراءة مختلفة للواقع وتحدياته وطبيعة المأزق الذي تحياه اليوم أمتنا الإسلامية ومنذ ذلك الحين والأسئلة لا تنقطع :

هل الأجدى سياسة الحوار أم الصدام ؟ وهل نحن بصدد حرب على أساس ديني كما تريد القاعدة أم يجب ألا نقع في فخ صدام الحضارات كما ترى الجماعة الإسلامية ؟ وهل استراتيجية القاعدة تنطوي على ترتيب صحيح للأولويات ومراعاة للقدرات ؟ وهل تنجح استراتيجية الجماعة الإسلامية في إيجاد نموذج يحتذي في علاقة الحركات الإسلامية بالحكومات التي تعيش في كنفها وتسهم في إيجاد منطق جديد في التعامل الصحيح بين الغرب والإسلام ؟

وهل استراتيجية القاعدة وما صاحبها من تفجيرات سواء في الحادي عشر من سبتمبر أو بالرياض تستند على أسس شرعية صحيحة ؟ أم أنها تنطوي على تطبيق خاطئ لأحكام صحيحة ؟

Email:abdallahaggag@hotmail.com
Islamic Turath Book Shop ت: 3911397 - 3925677 فاكس: 3913406